

موقف خليل بن أيبك الصفدي
من شيخ الإسلام
أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله تعالى

ومعه

ملاحم ابن أبي عقب
من الكتب التي حذر منها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

و

وقع القريض

قصيدة للإمام يحيى الصرصري (ت ٦٥٦هـ) في الثناء على عقيدة
الشيخ عبد الكريم الأثري الموصلي (ت ٦٥١هـ)
وكتابه (المعتمد في المعتقد)

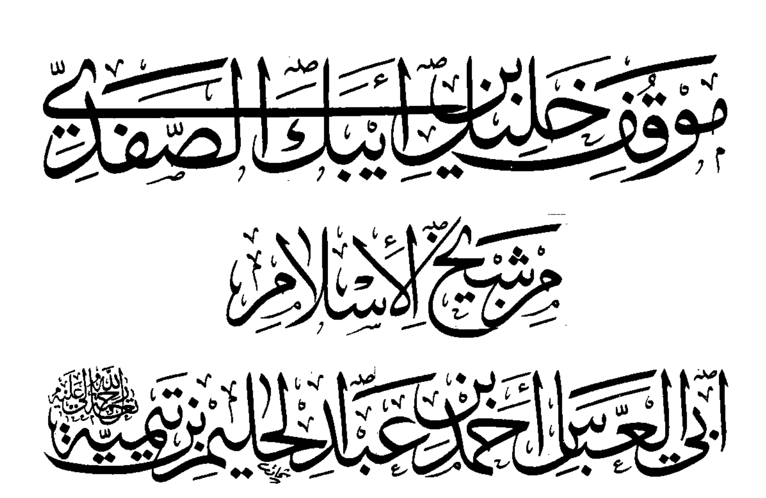
بقلم

أبو الفضل القونوي
محمد بن عبد الله أحمد

أضواء السلف







بقلم
أبو الفضل القونوي
محمد بن عبد الله أحمد

أضواء السلف



١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م





الرياض - الربوة - الدائري الشرقي - مخرج ١٥ ص ب ١٢١٨٩٢
الرمز ١١٧١١ ت ٢٣٢١٠٤٥ جوال ٠٥٠٥٢٨٠٣٢٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمدُك ربي ، والحمدُ لك كلّه ، عَزّ سلطانك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك ، وأصلّي وأسلّم على مَن بَعثتَه رحمة للعالمين ، وجعلتَه سيّدَ ولدِ آدمَ ، محمد أكرمِ خَلقكَ ، وعلى آله وصحبه ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ ، أما بعدُ :

فهذا كتاب في بيان موقفِ خليل بن أيبَك الصَّفَديّ ، من شيخ الإسلام ، أبي العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة ، رحمه الله تعالى ، موقف سرعان ما يجتلب إلى ذهن الخبير بسيرة شيخ الإسلام كلمة حقّ وإنصاف لقاضٍ شافعي معاصر لهما ، (من قضاة آل بيت السُّبكي) ، قالها حين أورد عليه أحدهم كلام خصوم ابن تيمية : « والله - يا فلان - ما يُبغض ابن تيمية ، إلا جاهلٌ أو صاحب هوى ، فالجاهل لا يدري ما يقول ، وصاحب الهوى يصدُّه هواه عن الحقّ بعد معرفته به »[1] .

وقد يقول بعض مَن ركب قطار العجلة : أَجِدَّكَ تَعُدّ الصفديّ قَسيماً لما

---

(١) الرد الوافر : ص ٩٩ ، والقاضي المذكور : بهاء الدين ، أبو البقاء محمد بن عبد البرّ السُّبْكي (ت٧٧٧هـ) (ذكر الشيخ الفاضل محمد بن إبراهيم الشيباني اسم تقي الدين السبكي حين نقل كلمة البهاء تلك ، وذلك خطأ . انظر : التوضيح الجلي في الردّ على النصيحة الذهبية ، ص٢٨) . ولا يستبعد أن يكون رأي البهاء السبكي في ابن تيمية من بواعث المعاداة بينه وبين قرابته التاج السبكي . انظر : درر العقود الفريدة : ٣/ ٢٥٣ ، والدرر الكامنة : ٣/ ٢٩٨ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة : ٣/ ٧٧ .

ذكره هذا القاضي ؟ كيف ، وهو تلميذ من تلاميذ ابن تيمية ، ممن مدحه ورثاه ؟!

أجل ، هو ما عجبتم منه ، ولقد كان ظني به كبعض ظنكم ، حتى درست هذا الجانب فيه ، وإنه إن بقي عندي شيء لم أقض العجب منه في دراستي تلك ، فمن المبالغة التي ضَمَّنها بعض كُتَّاب التراجم ترجمة الصفدي ، فكالوا له المديح شاعراً ، وأديباً ، ومؤرخاً ، ثمّ نُدرة من انتقد ذلك من المعاصرين!!

نعم ، للصفدي نصيب من تلك النُّعوت والمدائح ، بيد أن ذلك لا يُعليه إلى مراتب الفحول في عصره ، كما كتب ذلك بعض أهل زماننا ، وأَغربَ آخر ، فبَلّغه ذروة رُتب أهل الحديث الشريف ، فهو عنده (الحافظ الصفدي)!!

اسمعوا : أرأيتم ابن بطوطة صاحب الرحلات ؟ هذا الذي بدا في بعض ما أملاه من قصصها أنَّ عَقْلَه كان (على قَدّه)[١] ، نعم ، أعني ذلك السائح الكاذب أو المتخيّل[٢] ، أنه رأى وسمع شيخ الإسلام ابن تيمية (وشيخ الإسلام متحفظ[٣] عليه في (قلعة دمشق) قبل وُرُود ابن بطوطة بأسابيع) يقول في خطبة جمعة بجامعها كلاماً يعلم مَن علم أنه بريء من الدُّنوِّ منه فضلاً

---

(١) على قَدّ الشيء : من فصيح العامي ، والمعنى لا يخرج عن إفادة ضحالة تفكير من وُصِفَ بها . .

(٢) هذا التّخيّل والوهم المحتمل ذكره الدكتور الفاضل : عمر فرّوخ عند كلامه على فرية ابن بطوطة (الرحلة ١١٢ ـ ١١٣) في كتابه القيّم (ابن تيمية المجتهد ، بين أحكام الفقهاء وحاجات المجتمع) ص١٦٨ .

(٣) هذا الجدير بوصف اعتقاله رحمه الله تعالى ، فقد كانت (الضغوط) على السلطان الناصر من مبغضي الشيخ قوية ، والتفصيل في الموضوع يطول ، ولكن أقول هنا إن سجنه الحقيقي كان حين منع من الكتابة .

عن أن يعتقده ، فإني أقول : إنَّ لأخي الصفديين ، من الضِّغْن لابن تيمية ما يزيد على ما كان عند أخي الطَّنجيّين ، لا أدعي الغيب ، ولكنك سترى أن نتاج ضغن خليل في قبيح الافتراء أشد ، وقلة الحياء أصرح ! !

وإنك لن تعدم أَوْشاباً من متعصبة (الإسلاميين) في بلاد الله الواسعة ، مَن سَينقُلُ بعض كلمات الصفدي السيئة في شيخ الإسلام ، ولقد سبقتْ عصبة منهم بأرض الشام لفعل ذلك المنكر حين طبعت نشرة جديدة ، من نصيحة ابن السراج « الذهبية »[١] يروّجون بذلك زوراً من القول خلاصته : هذا ابن تيمية في نظر تلميذَيْهِ الذهبي والصفدي ! !

ولقد زادّ طِينتهم بِلّةً ، عدّ بعض فضلاء العصر وأهل العلم فيه ، الصفدي تلميذاً لشيخ الإسلام محباً له[٢] فلم أملك نفسي ـ وقد كانت لي بحوث أخرى ـ إلا أن أكتب هذا الكتاب مُنبّهاً أهل الفضل والعلم في هذه الجزئية ، مطلقاً

(١) حقُّ هذه الرسالة أن تنسب إلى محمد ابن السراج الدمشقي (ت٧٤٧هـ) فيقال فيها : « النصيحة السّراجية » ، بعد أن أنعم الله ـ جلّ وعزّ ـ على عبده الفقير إليه ، كات هذه السطور ، بالكشف عمن أرسلها ، ونشْرِ ذلك في كتاب (أضواء على الرسالة المنسوبة إلى الحافظ الذهبي . . .) وأسأله أن يعين على طبع دراسة عن المذكور ، فيها تفصيل وتوثيق ما حققته من أمر كاتبها « ابن السراج » ، بشاهد من كلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مضيفاً إليها « معلومة » جديدة ، يُعلم بها ما كان قبل مبهماً ، من أن « الشيخ المشتكي » المذكور في المناظرة مع الرفاعية في دمشق سنة ٧٠٥هـ ، ليس سوى ابن السراج الدمشقي .

(٢) انظر بعض مَن عَدُّوه كذلك في : « أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » ، و« العلماء العزاب » : ١٠٦ ، و« الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية » : ١١ ، ١٨٥ ، و« المداخل إلى آثار شيخ الإسلام » : ١٣ ، و« ابن قيم الجوزية ، حياته ، آثاره ، موارده » : ٢١ ، ١٩٦ ، ٢١٤ ، و« فرقة الأحباس . . . » : ٢/١٠٨٢ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٦ .

لعاطفتي الدينية حريتها ، فصار أسلوبي في النقد « صارماً منكياً » - والمعنيُّ خصوم شيخ الإسلام - وإن لم يرض ذلك أهل « المنهج العلمي »!! إذ لا أحفل بشريطتهم التي يؤول معناها إلى : أن يكبت الدارس « بغضه في لله » ، فيمن يردّ عليهم ، من مزدكي ، وملحد ، ووجودي متصوف ، من الطاعنين في دين الله تعالى ، ورسله ، وأوليائه ، وربما قرأ عليك أحدهم قول الله تعالى في قصة موسى عليه السلام ، وفرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ويسكت عن قوله تعالى ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ وقوله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، والمنهج الصحيح أن لكل مقام مقالاً .

وإنك واجد في الكتاب نقدات أدبية وعلمية منقولة عن المصادر ، يُؤمل من فضلاء الإخْصَائيّين في الأدب والتاريخ ، أن ينهضوا إلى دراستها في توسع ، وأن يُقيّموا حُكم الذين ترجموا للصفدي ، وتكلموا عليه .

وجعلته في ثلاثة فصول ، تخللتها مباحث ، ثم خاتمة :

الفصل الأول : حياته والرأي فيه .

الفصل الثاني : موقف الصفدي من ابن تيمية .

الفصل الثالث : هل رجع الحافظ الذهبي عن ثنائه على الصفدي؟

اللهم تقبّل مني إنْ وافق ما قلته رضاك ، وانفع بالذي كتبت ، واغفر لي كل ذنب جرى به قلمي ، إني أعوذ برضاك من سخطك .

وكتب

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القُونَويّ)

في ٢ جمادى الآخرى سنة ١٤٢٥هـ

مَرَام - قونية

الفصل الأول

حياته والرأي فيه



ترجمة الصفدي

خليلُ بن أَيبْك بن عبد الله ، الفاريّ ، الألْبَكي ، التُّركي ، الشافعي ، صلاح الدين ، أبو الصفاء (٦٩٦هـ ـ ٧٦٤هـ) ، أديبٌ ، وناظم ، ولد بصَفَد بفلسطين ، وإليهـــا نِسبتُه ، والفاريّ نسبة إلى « الفار » ، بلدة بنواحي أرمينية[١] ، ويمكن أن تكون نسبة إلى قرية « بيت فار » التي ذُكرت في قرى دمشق[٢] والألبكي نسبة إلى مولاه : فارس الدين ألْبَكي (ت٧٠٢هـ) أحد مماليك السلطان بيبرس (ت٦٧٦هـ) ، وكان على نيابة (صَفَد) أيام السلطان قلاوون (ت٦٨٩هـ)[٣] .

---

(١) معجم البلدان : ٤/ ٢٢٥ ، وذكر نسبته الفاري : الذهبي ، وابن رافع السلامي ، ولم يتنبّه ناشر المعجم المختص لخطأ الناسخ لما كتبها : الفارسي في قول الذهبي : « حدثني خليل الفاري » : ص٩٢ ، وانظر والوفيات) وأرمينية عند الجغرافيين القدماء يدخل فيها جزء من شرق الأناضول . انظر تقويم البلدان : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، وقد كانت منذ أوائل القرن السابع الهجري ، محطّ قبائل النازحين التركمان ، ويفهم أن الصفدي لم ينس لسان الترك . انظر : شواهد إتقانه لسان الترك في : « قاعدة في أصول الكتابة التركية » في (التذكرة ، مصورة القاهرة ، كُتب على المخطوط : الجزء الأخير ، الورقة ٧٩) وفي تصحيحه لفظ قازان (القِدْر) وأن الصحيح بالتركية : قَزَن ، وفي وصفه رجلاً بالقول : « إنه كان فصيحاً في اللغة التركية ، كأنه فيها بلبل »!! . وطريف ألا يكتب تركي مثل خليل ، في تعليم لسان قومه ، ويكتب فيه شيخه الأندلسي أبو حيان : (الإدراك للسان الأتراك) و(زهو الملك في نحو الترك) و(كتاب الأفعال في لسان الترك) انظر : نصرة الثائر : ص ٣٨٨ والأعيان : ٢/ ٦٥ ، ٣١١ ، ٤١٣ ، ٣/ ٣٦٧ ، ٥/ ٣٤٧ .

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٨٠ ، وتوضيح المشتبه : ٤/ ١٧ .

(٣) الأعيان : ١/ ٥٨٩ ، والدرر : ١/ ٢٣٦ ، والنجوم الزاهرة : ٨/ ٢٠٤ .

تعـلّم خليل في دمشق صناعة الرسم ، وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين[١] ، وقرأ شيئاً من الحديث[٢] سمع بأَخَرَة من جماعة ، وكتب الخطَّ المنسوب[٣] ، جَمَع وصنّف في الأدب والتراجم ، وعُدّ في المؤرخين[٤] ، وأول ما تولى مِن وظائف الدولة : ديوان الإنشاء (تشبه وظيفة : أمين السرّ ، السكرتير) في (صَــفَد) ، ثم في (القاهرة) ، وفي (حلب) و(الرَّحْبة) مدة ، ثمّ التوقيع (من وظائف الديوان) ، ووكالة بيت المال في (دمشق)[٥] وبها توفي .

---

(١) الأصلان : يقعان في عبارات المؤرخين كثيراً ، يريدون بهما أصول الدين ، وأصول الفقه ، انظر : جنى الجنتين : ٢٠ .

(٢) وتعبير السبكي في طبقاته : « . . . وعُني بالحديث » ، والذي أثبتُّه من قول ابن رافع السلامي .

(٣) الخط المنسوب : الخط الذي ركّبه وجوّده ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨هـ) . وانظر « تاريخ الإسلام » : ص ٣٧٣ .

(٤) إلا عند العلامة المحقق أحمد تيمور باشا (ت ١٣٤٨هـ) لأنه لم يكن مؤرخاً جيداً في نظره ، فقد ذكر أنه كان يأخذ من الأفواه ، فيخطىء ويصيب . (التذكرة التيمورية : ٢٣٥) . و لعل مما عناه « الباشا » أنه كان يرسل لمن كان حياً من معاصريه وقت جمعه « الوافي » يستمدُّهم الحديث عن أنفسهم . (الأعيان : ٣/ ٣٦١ ، ٤٣٨) وقد بالغ محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » ، في الحديث عن « حجم » الصفدي ، وضخّمه ، وعظّمه ، والذي يبدو للباحث أن ما فعله الصفدي في « الوافي »ـ مع ندرة بعض تراجمه ـ لا يختلف كثيراً عن صنيع أبي الفداء (ت٧٣٢هـ) الذي قال فيه محمد كرد علي ، وهو محقّ : « . . . تاريخه خلاصة ما كتبه ابن الأثير ، وغيره ، وكتابه : تقويم البلدان منقول من كتاب آخر ، وليس هو بأكثر من فهرس معجم جغرافي »!! (كنوز الأجداد : ٣٥٦ ، ٣٦٣ـ٣٦٨) إن الباحث يفيد من « الوافي » نقولاً ضاعت أصولها ، وتكفيه منقبة!

(٥) يفاد من المصادر أن مَن تكلم مِن أمراء المماليك العربية ، فعربيته عامية المكان الذي نشأ فيه ، وإنما كان أكثرهم يتحدثون التركية القَبْجَاقِية (لهجة من لهجاتها) الأعيان : ١/ ٤٧٧ ، ٥/ ٤٠٢ ، ٤/ ١٩٧ ، ٨٠ وليس من الصعب القول : إن كتّاب=

له مصنفات منها :

١ـ اختراع الخراع[١] في مخالفة النقل والطباع .

٢ـ أعيان العصر وأعوان النصر .

٣ـ التذكرة .

٤ـ تشنيف السمع بانسكاب الدمع .

٥ـ الحسن الصريح في مئة مليح .

٦ـ خلع العذار في وصف العذار .

٧ـ رشف الرحيق في وصف الحريق .

٨ـ رشف الزلال في وصف الهلال .

٩ـ الشعور بالعور .

١٠ـ كشف الحال في وصف الخال .

١١ـ نجم الدياجي في نظم الأهاجي .

= الدواوين كانوا في واقع الأمر يترجمون كلام الأمراء من التركية إلى العربية ، ولا يعني هذا أن ذلك الحشو والتطويل ، وتلك الزخارف اللفظية في مراسيمهم الأميرية ترجمة كلها ، بل كانوا يلقون خلاصة ما يريدونه في كليمات على كُتّابهم ، ثم يهذر كاتب الديوان بما قُيّدت أمثلته في المصادر !! وإن تفسير ما ذُكر من كتابة الصفدي خمسمئة مجلدة أو وأكثر بسبب (الفراغ) الوقتي الذي كان كتاب الديوان عليه لا يبدو محالاً .

(١) أيسبق إلى ذهنك حين تقرأ اسم كتاب الصفدي هذا : « اختراع الخراع . . . » كلمة نسبت لأعرابي ، سئل عن غنمه فقال : « تركتها ترعىٰ الهُعْخُع » ؟ أما أنا فنعم ، وحَقّق نُطق اسم الكتاب مكرراً : اختراعُ عو الخراع ، اختراع عو الخراع !! تسمع أذناك ما يغثّ .

١٢ـ ونصرة الثائر على المثل الثائر .

١٦ـ الوافي بالوفيات . وغيرها[١] .

وكان قد ضَعُفَ جانِبُه بعد قتل نائب دمشق (تَنْكِزْ) ، فَعُزِل مدة ، حتى ساعده تلميذه القاضي تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ) غير مرة ، لينال وظيفة يعيش بها .

وكانت مأساته التي هَدَّتْ أركانه ، انتزاع مملوكه : مُراد (١٥ عاماً) منه

---

(١) لا تصح نسبة كتاب (قهر الوجوه العابسة في ذكر نسب الجراكسة) إليه لأنه لصفدي آخر عاش في أيام الترك العثمانيين اسمه أحمد ، كتب كتاب (القهر) هذا لجركسيّ اسمه رضوان بك . انظر الكتاب المذكور ٣ ، ٣٦ .

كذلك فإني أشك في الشرح الذي ينسبه المتأخرون إليه ، لكتاب (الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية) في الجفر والكهانة ، المنسوب لابن عربي الطائي ، ففي مقدمة الشرح كلام نقله الكاتب عن صوفي (حروفي) كان فيما خوطب به قوله : « يا ولدي » مؤرخاً لذلك تأريخاً مات خليل الصفدي قبله بأكثر من ١٣ عاماً وقد شاخ (سنة ٧٧٣هـ) ، (كذا هو في غير ما نسخة) ثم ورود تعبير في سياق الكلام ـ وظاهر مخالفة الشرح لأسلوب الصفدي ـ لا يقوله من عاش أكثر سنيّه في دمشق . اقرأ قوله ـ والكلام عن ابن عربي ـ : « . . . ودفن بها في محلة بظاهرها تُدعى الصالحية » ، ثم ذكره لأمر اختفاء قبر ابن عربي (الأسطوري) تحت الأتربة ، مما لا مكان له في مصدر يوثق به . انظر شرح (الشجرة) ، الورق ٢ ، نسخة طبوب قابو ، رقم ٧٤٨٢ ، ونسخة بايريد ولي الدين أفندي رقم ٢٢٩٤ ، وجار الله أفندي رقم ٢٠٥٧ والذي أرجحه أن الشرح لصفدي آخر أيضاً ، يحتمل أن يكون عبد الله الصفدي ، الذي ورد ذكر اسمه في بعض نسخ شرحها ، وكل ما يعرف عنه أنه (قطب) صوفي ، قيل عنه بأنه نزيل دمشق . انظر مقدمة وردت قبل نسخة شرح الشجرة في مكتبة قيون أوغلو ، في قونية ، رقم (٣/ ١٥٢٠) . أما كتاب لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، فهو وإن وجدت نسخ فبها نسبتها إلى غيره فإن ذلك غير كاف في رده .

انتزاعاً[١] ، حين أقبل الأمير (قَرابُغا) الدوادار (ت ٧٤٩هـ)[٢] إلى الديوان يوماً ، بعد أنْ وُصف له حُسن مملوك الصفدي ، فأخذ بيد المملوك (مراد) ، وذهب به هدية إلى نائب دمشق الأمير أرغون شاه (ت٧٥٠هـ)[٣] ، وقد أجمل الصفدي ذكرها في كتاب « أعيان العصر » ، وربما كان ذلك خوفاً من بطش المغتصبين ، فلما كانت سنة ٧٦٢هـ ، فصّل الحادثة في الجزء (٢٨) من تذكرته ببعض التفصيل .

قال الصفدي : « وكان لي رَبيب يُدعى « مُراد » يحمل دَواتِي ، فوُصِف له ، فدخل إلى قاعة الإنشاء ، وأخذه بيده ، وراح وسَلّمَهُ إلى طواشي[٤] أَرْغُون شاه ، وقال : هذا مملوكُ مَلِكِ الأمراء ، فكتبتُ إلى القاضي ناصر الدين ، صاحب ديوان الإنشاء في هذا :

يـا سَيِّـداً صيَّـرتُ ظِـلّ جَنـابِـه ... لـي جُنـة إنْ جـارَ دهـرٌ أوْ بَغـا

---

(١) وله مملوكان آخران هما : طيدمر ، وطغاي ، وأما ولده فاسمه محمد . انظر الأعيان : ١/١٠٢ ، وقد حكى في كتابه (لوعة الشاكي) قصة تعشق رجل مملوكاً تركياً ، وفيها إشارات لا تبعدُ معها أنها قصة مع مملوكه مراد وأن اللوعة لوعته ، والدمعة دمعته ، والشَّكاة شكاته ، انظر : لوعة الشاكي ٩ ، ٢٥ ، ٤٥ .

(٢) انظر ترجمة الأمير (قرابغا) في الأعيان ٤/ ٨٠ ، والدوادار : من يحمل دواة الأمير ، وكذلك الرسائل الواردة إليه ، ويتابع تنفيذ أوامره .

(٣) ترجمة أرغون في : تحفة ذوي الألباب ص ٥٥٠ ، والأعيان ١/ ٤٥٧ .

(٤) الطواشي : وظيفة في قصور سلاطين ذلك الدهر وأمرائه ، يتولاها خصي ، تكون مهمته إحضار الجواري والغلمان لسلطانه أوأميره . قال تاج الدين السبكي : « ومنهم مقدم المماليك ، وهو الذي إليه أمر المردان ، ولا يحلّ له المواطأة على الفجور بهم ، ولا يُمكّن بعضهم من مضاجعة البعض في فراش واحد ، وقد كثر في هذه الطائفة نوع القيادة لمخدومهم وكذلك لغيرهم . . . » انظر : معيد النعم ومبيد النقم ٣٩ .

أترى الزمان محاصري ومحاربي ... حتى رماني في الوَرىٰ بـ(قَرَابُغَا)[١]

وقال في التذكرة : « وقد مات فتاي ، الولد مراد ـ رحم الله شبابه ـ في سادس عشر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمئة ، ليلة الجمعة من الشهر المذكور بدمشق المحروسة .

أيها السائرُ الذي رَكِبَ النَّعشَ ... وقلبي يسيرُ بَيْنَ يديهِ

زاحمتني فيك الملوكُ وما فازوا ... بشيءٍ مما أشاروا إليهِ

دافعتُهم بيدي بجَهَدِي ولكن ... ملكُ الموت ما قَدرتُ عليهِ

وقال أيضاً :

ليس لي بعد مرادي ... مِنْ مُرادٍ مِن نَصيبِ

كان مَمْلُوكي وابني ... وأَنيسِي وَحبيبي

وقال :

ترحّلتَ عنا يا مُراد بِرَغْمِنا ... وهَلْ تُنصف الأيام والموت حاكمُ

وكانت بك الأوقات أعراس نعمة ... فمذ متّ أضحت وهي فيك مآتم

أُغَالطُ نفَسْي في حقيقة ما جرى ... كأني في همي لموتك واهمُ

وأذكر أياماً بأُنسِكَ قد مَضَتْ ... كأني في ليلِ المَسَّرة حالِمُ

مَلَكتُكَ طِفلاً ليسَ تعَرِفُ والِداً ... ولا نَزعَتْ مما عليك التمائم

حتى قال :

فأصبحتَ مملوكي وابني وسيِّدي ... لأنك من عيبِ وحاشاك سالم

نعيمٌ لخِلّي أو لَظى لمعاندي ... تُصادِقُ هَذا وهذا تصادم

(١) أعيان العصر : ٤/ ٨٢ ، والتذكرة جـ ٢٨ الورقة ٩ .

وقال :

وخلّفتُ أولادي وهُمْ لكَ أخوةٌ غصونا رياح الحَزْنِ فيها تمائُم
لقد نَثَرُوا لمّا اجْتَلَوْكِ دموعهم كما انتثرت فوق الدموع الدراهم

وقال :

ولقد هَمَمْتُ بقتلِ روحِيَ بَعْدَهُ أَسَفاً عليهِ فخفتُ ألا نَلْتَقِي

وقد مات (مراد) بالطاعون الذي انتشر في الشام سنة ٧٤٩هـ ، ويفهم أن الصفدي لم يزل متأثراً بانتزاع النائب المذكور لربيبه ، ناقماً عليه ، وذلك من قوله فيه :

عادى رجالاً نَامَ عَنْ « مُرادِ » هِم فَلَمْ يَنامُوا مِن لَظَى أَحْقَادِهِم(١)

* * *

(١) تحفة ذوي الألباب : ٥٥٠ ، وانظر ترجمة الصفدي في : معجم شيوخ الذهبي : الورقة ٥٧ ، و المعجم المختص : ص ٩١ ، وذيل العبر للحسيني : ٢٠٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى : ١٠/٥ ، والوفيات لابن رافع : ٢/٢٦٨ ، والبداية والنهاية : ١٤/٣١٨ ، الذيل على العبر للعراقي : ١/ ١٣٤ ، وتعريف ذوي العلا : ١٤١ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة : ٣/٢٢٧ ، وطبقات الشافعية له ، ٣/ ٢٤١ ، والدرر الكامنة : ٢/ ٤٩٠ ، والمنهل الصافي ٥/ ٢٤١ ومعجم المطبوعات ، لسركيس : ٢/ ١٢١٠ـ ١٢١٣ ، الأعلام ٢/ ٣١٥ ، وتاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان : ١٠/ ١١٤ ـ١٢١ ، واختلط على صاحب « درة الحجال في أسماء الرجال » الخليلان : الصفدي والعلائي ١/ ٢٥٨ ، فليتنبه لذلك .

الصفديُّ شاعراً أديباً !!

كُنْ على ذكْرٍ وأنت تقرأ هذا الكتاب أني لستُ بصَدَدِ دراسة أدبية ، فأفصّل الرأي الذي أرتئيه في ذلك ، وإنما أجتزيء في هذا الفصل من القول جُملته ، فأقول : إنّ شعر خليل الصفدي على وَفْرَتِه ، وتبكيره في قوله ، سواءٌ طَرَفاه في النزول : ما كتبه في شَبُوبتهِ ، والذي قاله شيخاً[(١)] ، ولأمرٍ قد يكون هذا سِرّه ، لم يَنْعَتُه أخبر الناس به ، أعني التاج السبكي بالشاعر ، وإنما قال عنه في ترجمته : « . . . الناظم »[(٢)] ، فليس من الحيف عليه جعله في ساقة شعراء عصره .

أما نثره ، فكان خيراً من شِعره بدرجاتٍ ، ما كان خِلْواً مِن « جِناسِه » و« سَجعه » ، فإنْ ركن إليهما انْحَدرَ ومُجّ[(٣)] ، وما رأيتُ كاتباً يعود إلى إنشاءٍ جيّد أو مقارب ، فيُغثِه بزُخرف « بَديعِيّاته » مثل خليل بن أيبك ، ومثال ذلك متوافرٌ في كتبه ، ولتَستبين صورة ما أقول ، خُذْ ترجمةً من « أعيان عصره » ، وقارنها بالتي في « الوافي » تلْقَ بيّنةَ ذلك ، صعوداً في « الوافي » ، حين يُطلق ليراعه تخيّرَ الكلمات دون تسلّط ذوقه (الجناس ، والسجع وما إليهما) ، ونزولاً في الترجمة نفسها في « أعيان العصر » حين يرتدُّ سجّاعاً ، يُذَكِّرُك

(١) انظر ـ مثلاً ـ ما قاله سنة ٧١٠ هـ و ٧١٧هـ في « الغيث المسجم » : الورقة ٥ المجلد الأول نسخة قونية و المطبوعة ٨/٢ ، وفي تراجم معاصريه في « الوافي » ، وأكثره في « الأعيان » .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠/ ٥ .

(٣) والذين يشبهون الصفدي في ذلك كثيرون .

« شِقّاً » و« سطيحاً »[١] ، وجاهليةَ بيانٍ سُمّيت مِنْ قِبَلِ أعاجم الذَّوْقِ « بديعيات » ، وقد تلحظ كيف أن الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) شذّب أسلوبه حين نقل تراجمه من كتاب « أعيان العصر » ، وإليك مثالاً على ذلك ، وتمهيداً لموضوع الكتاب .

قال الصفدي في ترجمة : حماد الحلبي (ت٧٢٦هـ) : « . . . وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يعظمه ويعترف بصلاحه ، ويشهد باعتزاله عن الناس وانتزاحه ، ويتحقّق أنه ممن نأى عن الناس وطار بجناح نجاحه ، وحسبك بمن ثبت نضاره على ذلك المحكّ ، وأصغى لحديثه وما قطعه من حيث رقّ ولا ركّ ! ! »[٢] ، فما كان من ابن حجر إلا أن ألقى عن هذه « المعلومة » أذاها وقذاها ، فقال : « وكان ابن تيمية يعظمه ويعترف بصلاحه ، وحسبك بذلك »[٣] ! !

وإذا كان خلواً من فائدة ، وبخاصة إذا سمَّجه بأسلوبه ، فإنه يُعرِض عنه ، كقول الصفدي في ترجمة : فاطمة البغدادية (ت٧١٤هـ) المفتية الحنبلية : « وكان ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يتعجب من علمها ، ويثني على ذكائها وخشوعها وبكائها . . . ، فلو عاينتها لقربت من الشيخ تقي الدين في تفضيلها ، ولن أقصيه ، وقلت له : هذه التي يصحّ أنْ يقال عنها : إنها بأربع أَخْصِيَةٍ ، لأنها مؤنثة قد تَفَرَّدتْ بالتذكير ، وعارفة لم يدخل على معرفتها تنكير ! ! »[٤] ، ومثل قوله في ترجمة خصم شيخ الإسلام ، القاضي ابن جملة

---

(١) هذان من كُهّان العرب في الجاهلية ، فمن التزم السجع اليوم ، فإلى « مدرستهما » نسبته ! !

(٢) الأعيان : ٢/٢٩٦ .

(٣) الدرر : ٢/٤٢ .

(٤) الأعيان : ٤/٢٨ ، ٢٩ .

(ت٧٣٨هـ) : « . . . وكان في أيام نيابته لقاضي القضاة جلال الدين (القزويني) بدمشق قد قام على الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة الزيارة ، وسدّد سهمه إليه وأطلق زياره[١] ، وانتصب لهذا الأمر ، وأوطأ قدميه على الجمر ، ولم يُصَلِّ على جنازته ، وتبرأ من حيازته »[٢] .

* * *

---

(١) الزّيار : وتَر القوس .

(٢) الأعيان : ٥/ ٥٩٥ ، قلت : ثم نُكِبَ ابن جملة على يد الأمير (تنكز) ، وحكى المؤرخ المحب لشيخ الإسلام أعني ابن كثير ذلك وقال : « ورسم على ابن جملة بالعذراوية ، ثم نقل إلى القلعة جزاء وفاقاً ، والحمد لله وحده . . » تاريخ ابن كثير : ١٤/ ١٧٤ .

نقدُ العلماء والأدباء والشعراء له

كان الصفديُّ من « سُرَّاق » معاني الشعر ، والحقُّ إنّ قضية « السرقات » قديمة في تاريخ الأدب ، بيد أنها كثرت في عصر الصفدي ، حتى ذكر باحث في شعراء ذلك العهد : أنّ شعراءه أَلِفوا اصطياد المعاني بلا تخَفّ ولا خجل ، وقال : « . . . ومن الطبيعي ـ والأمر على هذا الحال ـ أن يتأثر الصفدي بروح العصر ، ويتّجه مع الركب ، فيسوّغ لنفسه السرقة ، ويُعلن هذا في أبياتٍ يقول فيها :

سـرِقـاتُ الأديـب بعـضَ المعـانـي جوَّزوها في مَذْهَبِ الشّعر شَرْعا
لكــنِ اللَّفــظُ لا يجــوزُ وهــذا قولُ قومٍ مِن قبل ذا العصر صَرْعى »[1]

وأول مَن يُذكر مِن « ضحايا » الصفدي شيخُه : « ابن نُباتة »[2] ، الذي أورد تحسّراً على جهده الذي بذله في تعليم الصفدي ، حين قال : « بلغني عن

(١) من دراسة وتحقيق : د . عبد الخالق الزهراني ، لكتاب : « نزول الغيث على الغيث » : ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) ذكر ابن حجة الحمويّ أن مِن سُمُوّ رتبة الشاعر : الوداعي (ت٧١٦هـ) أنْ يُغير عليه مثل ابن نباتة ، ولم يقل ذلك في سرقات الصفدي من ابن نباتة ، مكتفياً بالقول : إنّ الجزاء من جنس العمل ، ثم عرض رأيه فيهما في موضع آخر فقال : « قد أوردت هنا ما جناه الشيخ صلاح الدين الصفدي من حدائق الروض = « النُّباتي » ، ومقابلة الشيخ جمال الدين له على ما جناه ، فإن نسبني أحد إلى تحمل راجعته إلى النقل ، وإن وافق وتعقل الرتبتين فقد اكتفى بشاهد العقل ، وإلا فالأسماء الصفدية بالنسبة إلى القطر النباتي تمجها الأذواق. . . » .
انظر خزانة الأدب : ٣/ ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٣ .

بعض أدباء عصرنا ، ممن منحتُه وُدّي ، وأنفقتُ على ذهنه الطالبِ ما عندي ، وأقمتُه ، وهو لا يدري الوزن ، مقام من زكاه نقدي ، وأودعته ذخائر فكري فأنفقها ، وأعَرْتُه أوراقي العتيقة ، فلا والله ما ردّها ولا أعتقها ، بل إنه غيرّ الثناء بالهجاء ، والولاء بالجفاء ، ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار ، مع الغِنى عنها والغَناء ، فتغاضيتُ وقلت : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ وغَلطةُ صديقٍ أتجرَّعها ولو كانت من حميم ، وأخليتُ من حديثه بابَ فمي ومجلسَ صدري ، وصرفتُ ذِكْره عن فكري . . . » ، ثم قال بعد ذكره أنه وقف على تصانيف له ، وفيها شِعره المغصوب المنهوب : « . . . فضحكتُ ـ والله ـ من ذهنه الذاهل ، وذكرتُ على زعمه قول القائل :

وفتـــى يقـــولُ الشعـــرَ إلا أنـــه ... فيمـــا علمنـــا يســـرقُ المســـروقـــا

وعجبتُ له كيف رضي لنفسه هذا الأمر منكراً ، وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكرّرا . . . » ، ثم أخبر أنه جمع مصنَّفاً لفضحه ، وقال : « . . . وسمّيته : « خُبز الشّعِير » ، لكونه المأكول المذموم ، وعرضتُه على معدلة مولانا ، ليعلم أينّا مع (خليله) مظلوم » .

وكان قد استهلّ مقدمة كتابه المذكور بقوله تعالى ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾[1] ثم قال : « اللهمَّ ومَنْ دخل بيتي كافراً بفوائدي المنعمة ، وبيت شِعري ، سارقاً من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فأخجِله في سِرّه وعلانيته ! ! وعاقبه على قوله وعلى نِيّته »[2] .

وقد ذكر الدّماميني (ت ٨٢٨هـ) رحمه الله تعالى : أنّ مَن شاهد مصنّف

---

(١) سورة نوح ، آية : ٧١ .
(٢) خزانة الأدب : ١/٣٥٧ ، ٣٥٨ .

« ابن نباتة » ـ المذكور ـ شاهدَ العَجب[١] قال ابن أبي حَجَلَة (ت ٧٧٦هـ) :

إنَّ ابنَ أيْبَكَ لم تَزلْ سَرِقاتُهُ تأتي بكُلّ قَبيحةٍ وقبيحِ
نَسَبَ المعانِي في النَّسِيمِ لنفسِهِ جَهلاً فراحَ كلامُهُ في الرّيحِ[٢]

ويبدو أنَّ الصفديّ جعل يتتبّع شِعر أستاذه ابن نباتة ، لعله يظفر بسرقةٍ له ، لِيُعلنها للناس : أنه شريكه في عَيْبِهِ ، حتى وقف على بيتين ساقطين ، لا يُدرى متى قالهما ابن نباتة ، أفي مبدأ أمره ؟ أم حين فَحُل شِعره ؟ .

وأكتفي بنقل البيت (المسروق منه) وهو قوله :

« فقلتُ : ما الاسم ؟ قال : موسى قلتُ : هنا تُحلقُ اللحاءُ » .

فقال الصفدي بعد ذكره خطأ جَمْعِ (لحية) في « اللحاء » ، وأنه لِحى :

« . . . وقد أحسن المولى : جمال الدين بن نُباتة ، حيث أخذ هذا ، فقال :
فقلتُ : ما الاسم قال : موسى قلتُ : هنا تُحلَقُ الذُّقونُ

ولكنه أخذ البيت الثاني بلفظه ومعناه ، وهي سرقةٌ فاحشة !! لأنه جاء بالبيت برُمَّته خلا القافية . . »[٣] .

وما أحسب أنَّ أديباً ـ حقَّ أديب ـ قرأ كتاب الصفدي الذي سماه : « جِنان الجناس » ثم حُدّث : أن هاهنا ناقداً مِن الشعراء قرأ هذا الكتاب ، فكان من أسلوب نقده له ، وعدم رضاه عنه أن سماه : « جُنان الخَنَّاس » ، إلا موافقاً على استحقاقه النقد !![٤] .

---

(١) نزول الغيث : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
(٢) بدائع الزهور : ١/ ٨ .
(٣) التذكرة جـ٣ ، الورقة : ٦٦ .
(٤) الذي أطلق على كتاب الصفدي ذلك ابن نباتة . انظر : خزانة الأدب : ١/ ٣٨٢ ، وأما ما نقله الصفدي من ثناء العلاء القونوي (ت٧٢٩هـ) على الكتاب المذكور ، =

لقد عِيْبَ الصفديُّ حتى في اختيار الشّعْر ، فإنه حين انتخب أبياتَ مَنْ هو أشعر منه بمراحل ، مثل سراج الدين الوراق (ت٦٩٥هـ) في كتاب سماه : (لمع السراج) قال فيه أحد النَّقَدة : « . . . ولَكَم رأيتُ نور السراج فيه قليلاً ! ! »[١] .

* * *

= فمجاملة ، أو إخبار بذوق فقيه في الأدب . انظر الأعيان : ٣/ ٢٩١ .

(١) خزانة الأدب : ٣/ ٢١٠ .

رأي الحافظ ابن حجر العسقلاني فيه

وقد حمل على الصفدي في ذلك علماء كبار ، منهم الحافظُ ابن حجر العسقلاني الذي فضّل شعر الإمام ابن العونية (ت٧٥٥هـ) على شعر الصفدي ، وقال : « وشعره أكثر انسجاماً ، وأقلّ تكلّفاً »[١] . ووضح رأيه فيه أديباً ، في التقريظ الذي كتبه لمصنَّف علامة عصره[٢] ، الإمام ، البدر الدَّماميني « نزول الغيث على الغيث » في نقد كتاب الصفدي « الغيث المسْجَم »[٣] ، عندما قال : « . . . ولا ريب عند صاحب الذوق أنَّ نقصَ الخليلِ زادَ ، وأنّ هذا السيّدَ هذّبَ به مِن كلامِ الصلاحِ فسادَ ، فلو صدر الصفدي إلى الدنيا بعد موته ، لما وجد عنده إنكار ورد ، ولو رام أن يهادي هذا المولى لهدايته له إلى الصواب ببلد ، لقال له : ما لنا حاجة منك بصفد .

على أنّ هذا الصفديّ كان كثيراً ما يُقدِمُ على العلوم ـ كالنحو ـ من غير مبتدأ معرفة ، ويستغني بتعديله وتجريحه ، وتمريضه ، وتصحيحه ، فلا يثري من صفة منصفة ، .

ويـــرى أنـــه البصيـــر بهـــذا وهو في العُمْي ضائعُ العُكّازِ »[٤]

---

(١) الدرر : ٣/ ٢٨ ، وطبقات ابن قاضي شهبة : ٣/ ٣٥ .

(٢) وصفه بذلك ابن أبي حجلة في : خزانة الأدب : ٢/ ٥١١ .

(٣) ورد اسم هذا الكتاب مختلفاً في كشف الظنون : ٢ / ١٥٣٧ : « الغيث الذي انسجم . . . » .

(٤) نزول الغيث : ٥٩٠ ، والجواهر والدرر : ٢/ ٧١٩ والبيت للمتنبي (الموسوعة الشعرية ، إصدار المجمع الثقافي CD) .

فعلى هذا يحمل قول الحافظ في (الدرر الكامنة) في ترجمة الصفدي : « وقال الشعر الحسن » ، وقوله عن (الغيث المسجم) : « كثير الفوائد »[١] ، على النقل عن غيره ، أو هو رأي قديم له .

وكان ابن حجر قد شرع في اختصار كتاب « الوافي بالوفيات » للصفدي ، حتى « مرّ على أكثره » ، إلا أنّ عارضاً ما حال بينه وبين المضيّ فيه إلى تمامه ، فأحال إكماله لبدر الدين البَشْتكي ، (ت٨٣٠هـ)[٢] ، وقال في ذلك : « ولقد عرض لي بعد أن كتبتُ من هذا الجزء قطعةً عارضٌ ، فسألتُ صاحبنا بدر الدين الدمشقي في تكملة تجريده على الشرط الذي قدمته » .

قال تلميذه الإمام السخاوي (ت ٩٠٢هـ) : « وجرَّده شيخنا في ابتداء أمره ، ثم إنه مات وهو يجرده مرّة أخرى » ، وقال في موضع آخر : « وكان يشتغل فيه قبيل موته بيسير ، وكأنه لم يكن عنده التجريد المنسوب إليه عملاً وإرشاداً قديماً »[٣] .

* * *

---

(١) الدرر الكامنة : ٢/ ٤٩ .

(٢) ترجمته في ذيل الدرر : ٢٣٩ ، وإنباء الغمر : ٨/ ١٣٢ ، و درر العقود : ٣/ ٨١ ، الضوء اللامع : ٦/ ٢٧٧ ، والبشتكي نسبة إلى المحلة التي أخذت اسمها من جامع « بشتك الناصري » .

(٣) الإعلان بالتوبيخ : ٢٢١ ، والجواهر والدرر : ٢/ ٦٨٩ ، وانظر الورقة الأولى من مخطوطة (تجريد الوافي) من مصورة دار الكتب المصرية .

الدمامينيّ ، ناقد الصفدي الأول

دَرَسَ الدَّمامِينيُّ [(١)] كتاب الصفدي دراسة نَقَدٍ وتمحيص أواخر سنة ٧٩٤هـ ، وكان مما جاء في ديباجة كتابه قوله : « . . . فوجدتُ هذا « الصّلاح » قد ارتكب من الفساد جَليلاً ، وكادت الآداب تقول عانية له : ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ورأيت فيه سقطات كثيرة ، لا تُقال عن الأصاغر ، ولا يُقال منها العاثر ، ومباحث نازلة عن درجة الاعتبار ، يفخر بها مع قلة جدواها ويكاثر » ، ثم ذكر سبب تسمية نقداته بـ« نزول الغيث » ، فقال : « . . . وحيث كان ذلك التصنيف موسوماً بـ« غيث الأدب الذي انسجم في شرح لاميّة العجم » ، رأيتُ أنْ أسمّي هذه المناقشات بـ(نزول الغيث) لأنها التي أنزلتْهُ إلى الحضيض ، وأوقعته من اعتراضاتها في الطويل والعريض . . . » .

وذكر في موضع آخر أنّ الصفدي فَهِمَ من صاحب « لامية العجم » ما لم يقصد إليه ، وأنّ نَقْدَه خلال شرحه ـ أعني الصفدي ـ كان مشوباً بإظهار الإطلاع ، والتكثُّر بالاتساع في العلوم ، تزيّداً على الناس ، قال : « ويأبى الله إلا أن يُورِدَه من النقص شرَّ موْرِدِ ! ! »[(٢)] .

---

(١) ترجمته في ذيل الدرر : ٢٣٤ ، وإنباء الغُمر : ٨/ ٩٢ ، ودرر العقود الفريدة : ٣/ ١٠٣ ، الضوء اللامع : ٧/ ١٨٤ ، وذكر السخاوي في « القول المنبي » ما يفهم منه أنه كان خصماً لمعظّمي الفكر الوجودي ، لما كان باليمن . انظر الورقة ١٤ .

(٢) نزول الغيث : ٢٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧١ ، ورأيت في مكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة نسخة منها ولم يتيسر لي تصويرها .

ويُفهم من عبارة السخاوي ، موافقة جلَّة من أئمة الشام ومصر ، لنَقَداتِ الدّمامينيّ الشديدة في الصفدي ، وأنّ بعضهم شمل بنقده كتباً أخرى له ، وتأمل قول السخاوي : « قرَّظَه له أئمة عصره ، فأمْعَنوا !! »[١] .

❊ ❊ ❊

(١) الضوء اللامع : ٧/ ١٨٥ ، قلت : ومن أولئك « المُمْعِنِين » في التقريظ ، شيخُ الدماميني ، وابنُ خالته : ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، انظر : درر العقود الفريدة : ٣/ ١٠٣ .

بعض من امتدح نقدات الدّماميني

أكثرهم وضوحاً في نقده وفائدة : البدر البشتكي ، الذي مرَّ عن قريب ، وإنَّ لرأيه لأهمية ، فهو شاعر ، وأديب دمشقي ، أدرك الصفدي في شبابه ، وأخذ عن ابن نباتة ، وكان صوفياً ينسخ كتب ابن عربي لشيخه في التصوف ، ثم ترك ذلك ، واستمرَّ في نسخ كتب العلم مثل (تاريخ الإسلام) ويظهر من اختيار ابن حجر له إكمال (تجريد الوافي) أنه كالذي أحال الأمر لمختصّ بنقد مؤلفات الصفدي من نظم ، ونثر ، ألا يبدو ذلك من « تقريظه » حين قال :

« . . . هذا مع أنه طالما تكلم فيما لا يُحسن ،

- وادَّعى الإمامة ،
- ونازع أهل الفنون بما لا يَعرفُ ،
- وطلب الزّعامة ،
- وجَرَّح في تاريخه وعَدَّل[١] ،
- واستحسن أشعار الناس بغير ذوقٍ واستَرذَل ،
- وزعم أنه سلطان مَن نظَمَ المقاطيع ، والزاعمُ كذوب ، والشاهد على جهله ما يختلف عليه من الضروب . . . » .

وجاء بمثال ، ثم قال مخاطباً العلامة الدماميني : « . . . وجَرَّدتَ به الصلاح من قشوره ، وما قدْرُ تلك القشور عند هذا اللُّباب ؟ . . . » .

---

(١) البشتكي سلف أحمد تيمور باشا ، في نقد الصفدي مؤرخاً !!

ومنهم شيخ القرّاء ابن الجزري (ت٨٣٣ هـ)[1] الذي كان من تقريظه قوله : « . . . ووَحِل خليلُ صفد مِن « نزول الغيث « بما لا يطاق . . . ، وتكلّم في علم الخليل بن أحمد ، فما خليل بن أيبك ؟ وأظهر لأهل الفساد ، قدر الصلاح ، وقيّدَ مطلقاً من صفدٍ ، فلاح في قَيْدِه الفلاح . . . » .

ومنهم مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفي (ت ٨٠٢هـ)[2] الذي قال عن الدمامينيّ إنه : « . . . قد تتبّع آثار الغرس الصفدي ، فجعله هباء منثوراً ، وصيّره كأنه لم يكن من قبل شيئاً مذكوراً . . . » .

ومنهم ابن مِكْناس (ت٨٢٢هـ)[3] الذي قال : « . . . وناقشَ الصفديَّ ، فأظهر فسادَ آرائه ، وأقام على خطئه الدلائل ، وأحسن الردّ . . . ، ولعمري إنَّ الصفدي هو الظالم على نفسه ، والموجب فضيحته بين أبناء جنسه ، فإنه تكلم فيما لا يعلم . . . » .

ومنهم ابن العجمي (ت٧٩٥هـ)[4] الذي قال : « . . . وشرحَ الصدور ، بإصلاح ما أفسده في شرحها الصلاحُ . . . » .

ومنهم الزركشي (ت ٨١٣هـ)[5] الذي قال : « فلقد ـ والله ـ ترك الصفديَّ بقيود أدلته مُصفَّداً . . . »[6] .

وكان شيخُ ابن خلدون : أبو البركات البِلّفِيقي (ت٧٧١ هـ)[7] يحذر

---

(١) ترجمته في الضوء اللامع : ٩/ ٢٥٥ ، ودرر العقود الفريدة : ٣/ ١٠٧ .
(٢) ترجمته في ذيل الدرر : ٤٦ ، وإنباء الغمر : ٤/ ١٥٨ ، ودرر العقود : ١/ ٤٠٨ .
(٣) ترجمته في ذيل الدرر : ٢٠٦ ، وإنباء الغمر : ٧/ ٣٦٨ ، ودرر العقود : ٣/ ١٩ .
(٤) ترجمته في إنباء الغمر : ٣/ ١٩١ .
(٥) ترجمته في ذيل الدرر : ١٥١ ، وإنباء الغمر : ٦/ ٢٦٢ ، و درر العقود : ٣/ ١٠٧ .
(٦) نزول الغيث : ٥٦٩ـ٥٩٣ .
(٧) ترجمته في الدرر : ٤/ ٩٦ .

الطلبة ـ وهم بالمغربـ من أمثال الصفدي ، حتى أسمعهم يوماً أمنية له عجيبة ، فقال : « إنّ مِن أشهى ما تقترحه عليّ نفسي أنْ أُشاهِد في بعض الأيام ، مَن ينتحلُ فنون هذا البديع في نظمه أو نثره ، وقد عوقب بأشدّ العقوبة ، ونُوديَ عليه (قال ابن خلدون) يحذّر بذلك تلاميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة ، فيكلفون بها ، ويتناسون البلاغة »[١] .

وذكر جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي (ت٩٣٠هـ) في شرحه على لامية العجم (نشر العَلَم) : أن الصفدي شرحها(يعني في : الغيث المسجم) « فأوعى فيه وأوعب ، وأطنب وأسهب ، وأعجب وأغرب ، وأطلق أعنة الأقلام ، وجر أذيال فصول الكلام ، وأسهل وأوعر ، وأنجد وأغور ، واستطرد من فنون إلى فنون[٢] ، واسترسل في شجون الجدّ والمجون[٣] حتى صار ذلك التطويل سبباً للعجز عن التحصيل ، هذا مع ما خرج فيه عن الحَدّ ، وطغى الماء في المدّ ، من مستهجنات هزله[٤] التي

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٤٧٠ .

(٢) في استطراد لا يشبه استطراد (الجاحظ) وضَرْبه ، بل فيه شَبَه من استطراد النويري السكندري (ت٧٧٥هـ)الذي صنَّف « الإلمام » ، وكان غرضه وصف هجوم الفرنج على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ ، فكان خبر الوقعة في جانب استطراداته كالشامة . قاله ابن حجر العسقلاني في الدرر : ٤/ ٨٨ وما تبرير الصفدي لاستطراداته في مقدمة كتابه (الغيث : ١/ ١١ـ١٣) إلا من النفج ، وحب إظهار العلم ، الذي أشار إليه الدماميني .

(٣) انظر مصداق كلام الرجل في « الغيث المسجم » : ١/ ٣٦ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ١٣٤ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢/ ٥ ، ٦ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ـ ٢٤٢ ، ٣٨٨ ، ٤٠٤ـ٤٠٧ ، ولا يخجل إذ نقل الفسوق ، مما لا حاجة إليه أصلاً ، حتى زاد فاستخدم تعبيراً لا يستخدمه من يستحي ، قال : « . . . وعلى ذكر حلاوة الدبيب . . . » ٢/ ٣٢٢ .

(٤) من مستهجن ما أورده في « شرحه » قصة فاجرة من قصص المثنوي ، الداخلة في « الأدب المكشوف » أو « الواقعي »!! (قصة زوجة تفجر مع عشيقها بحضرة زوجها تحت شجرة كمثرى) . انظر المثنوي : ج ٤/ رقم البيت ٣٥٤٤ ، ترجمة : إبراهيم=

لا تليق بقلمه وفضله ، بما لا يحلّ ذكره وإيداعه ، بل تُخلّ بالعدالة روايته وسماعه[١] .

ولم يَعْدَم الصفدي مَن دافع عنه من (المتأدبين)، فهذا ابن أَقْبَرس (ت٨٦٢هـ)[٢] الذي أظهر تعصباً أشبه بتعصب الرجل لابن جلدته ، وحمل على العلماء المقرِّظين لكتاب الدماميني ، دون أن يسمي أحداً ، كتب يُنافح عنه أسطراً سمَّاها : (تحكيم العقول بأفول البدر بالنزول) فكان العنوان مُلمِحاً عن كُنه المكتوب وقيمته ، وبدا أنه استشعر خطأه في دفاعه ، فكتب في آخر الكتاب قوله :

تَـأَمـلْ مـا كتبـتُ وكـن نصـوحـاً ولا تعجـل بهجـوي وامتـداحـي
فـلا بِـدْعٌ مـوافـاتـي خليـلاً ولا أنـي نُسبـت إلـى الصـلاحِ[٣]

وكأن السخاوي الذي قال إن تصانيفه ليست بذاك ، قد نقلهما في ترجمته له كالشاهد من كلام المترجم على ماحكم به عليه .

= الدسوقي شتا ، وفي « أخبار جلال الدين الرومي« : ص ٤٠٨) . بقي أن يذكر هنا أن الصفدي (الذي أخذ الفارسية عن شيخ له) لم يذكر مصدر القصة ، فلا يُدرَى أترجمها هو عن المثنوي أم نقلها عن غيره ؟ . انظر : الغيث المسجم : ١/ ١٤٤ .

(١) كشف الظنون : ٢/ ١٥٧٣ ، قلت : ويرد أن المتصوف اليمني عبد الله اليافعي (ت ٧٦٨هـ) إنمالم يجعل « الوافي » من أصول كتابه : « مرآة الجنان » ، للعهر والبذاء المبثوثان فيه ، قال اليافعي : « . . . انتقيت معظمه من تاريخ الذهبي وابن خلكان ، حاذفاً التطويل المملّ للإنسان ، وما يُكره ذكره للمتديّن ، وهو الخلاعة والمجون المستقبحان « . . مرآة الجنان : ٤/ ٣٦٢ .

(٢) قاض تركي الأصل ، من قضاة الشافعية ، انظر ترجمته في : الضوء اللامع ٥/ ٢٩٢ ، والذيل التام : ٢/ ١٢٨ ، والنجوم الزاهرة : ١٦/ ١٦٣ ، والمنهل الصافي : ٨/ ١١٣ ، (وكان مؤلفه ابن تغري بردي ـ على حبه الصفدي ـ ممن ذمه لسوء سيرته في مناصبه التي وليها) . وعنوان العنوان : ١٢٥ ، ونيل الأمل : ٦/ ٣١ ، وشذرات الذهب : ٧/ ٢٦٨ ، وإيضاح المكنون : ٣/ ٢٦٨ .

(٣) تحكيم العقول : الورقة ١٠٥ .

بعض رأي « صديقه » التاج السّبكي فيه !!

أما القاضي عبد الوهاب السّبكي (ت ٧٧١هـ) صديق الصفدي و« المُشرِف » على تأليفه كتابه « أعيان العصر »[١] ، فقد جاء بالذي يؤيد ما ذهب إليه مَن سمّيتُهم من ناقديه ، وذلك حين عرض حكايةَ تناولهما بالنقد بيتَ جرير :

طَرقتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقتَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فقد استعمل الشاعر لفظة : « ارجعي » وهي قاسية لا يُجْبَه بها المحبوب ، والشاهد من ذلك أن السبكي أورد نظمَ الصفدي في نقد جرير ، ثم جاء بنظمه هو ، وقال : « فلما وقف الشيخُ صلاح الدين (الصفدي) على كلامي هذا كله ، زعم أني أعترفُ له بحُسن النقد. . . » ، ثم أورد شِعر الصفدي ، وقال : « قلتُ : ولا يخفى أنّ هذه الاعتراضات كلها لفظية ، طَرَقتْ صاحبها ولم يُحقّق. . . »!![٢] .

---

(١) كتاب « الأعيان » للصفدي ، أُلّف بتزيين « التاج » وحَضّه ، ويَرِد في الاحتمال أنّ « الوافي » ـ وهو في رأيي تصنيف أريد له منافسة « تاريخ الإسلام » للذهبي ، ونصرة الأشعرية والصوفية ـ إنما كان بتزيين من السُّبكيَّيْن أيضاً : الوالد وما ولد ! وللنصفة أقول : إن السبكي « الوالد » أخفّ تعصباً من « الولد » السبكي ، الذي بدا فقر حيائه ، وقلة وازعُ الدين فيه ، حين حمل على المصلحين الكبار ، حملة عَفّ الصفدي عن مثلها ، وانحطّ في أغوار الظلم والحقد ، لما سبّ الأئمة الكبار في عصره : الذهبي والمزّي والبرزالي ، سباً قبيحاً . انظر طبقاته الكبرى ١٠/ ٤٠٠ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٩/ ١٥١ .

نعم ، إنها كلمات قاسية ، من زميلٍ « وَفيّ » (كان تلميذه) قاسَمَه عقده وطريقته الصوفية ، وما أحسبها جاءت منه عفواً (كالتي بَدَرَتْ من جرير ! !) فقد سمّاه في أول الترجمة « الناظم » ولم يسمه « الشاعر » ، وبينهما الذي قد ذكره أهل الأدب من الفرق ، والحقّ إنه لا يُدرى ما كان ينتاب « نوازع » التاج السبكي نحوه ؟ ![1] .

تأمل لَذْع سَخَر عبدِ الوهاب السبكي بصاحبه ، أو« الواقع » من حال الصفدي .

قال : « . . . كانت بيني وبينه صداقة منذ كنتُ صغيراً ،

- فإنه كان يتردّد إلى والدي ،

- فصحبتُه ،

- ولم يزل مصاحباً لي ، إلى أن قضى نحبه ،

- وكنت قد ساعدته آخر عمره ، فولي كتابة الدّسْت (مساعد كاتب الدرج) بدمشق ،

- ثم ساعدته ، فَوَلِيَ كتابة السرّ بحلب ،

- ثم ساعدته ، فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال ، وكتابة الدّست ، . . . .

- وكانت له همّة عالية في التحصيل ،

- فما صنّف كتاباً إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه من فقه ، وحديث وأصول ، ونحو ،

---

(١) لعل ترجمة الصفدي للتاج في (الوافي ١٩/ ٢١٠) من أسباب (تقزيم) التاج له حين صرح بـ« مساعداته » له في تأليف « الأعيان » ، وعباراته الأخرى ، وذكر مساعداته له للحصول على وظيفة (بعد أيام عزّه مع تنكز) .

- لا سيما « أعيان العصر »[١] ،

- فأنا أشرتُ عليه بعمله ،

- ثم استعان بي في أكثره ،

- ولما أخرجت مختصري في الأصلين المسمّى « جمع الجوامع » كتبه بخطّه ،

- وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ عليّ ،
- ويلذّ له التقرير ،

- وسمعه كلّه علي[٢] ،

- وربما شارك في فهمه رحمه الله تعالى ! !

ثم قال : « كنت أصحبه منذ كنت دون سنّ البلوغ ، وكان يكاتبني وأكاتبه ، وبه رغبتُ في الأدب ، فربما وقَعَ لي شِعر ركيك من « نظم » الصبيان فكتبه هو عني إذ ذاك »[٣] .

---

(١) وقد تعلم أن كتاب « أعيان العصر » ليس بكتاب فقه ولا حديث ولا أصول ولا نحو ! ! واعجب من تصرف المقريزي في كلام السبكي ، حين جعل « المعلومة » فيه لا تحمل المعنى الذي أراده السبكي ، فقال : « إذا صنّف كتاباً راجع أهل العلم فيما يحتاج إليه فيه من موادّ العلم » ! ! . . انظر المقفى الكبير ٣/ ٧٦٨ .

(٢) ارتكب أحد مداحي الصفدي المعاصرين (محظوراً) في التحقيق حين بتر ما بعد هذه الجملة . انظر مقدمة (الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه) ص٨ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠/ ٥ ، ٦ ، قلت : وقد قال ابن قاضي شهبة ، فيما يشبه الاعتذار عن إيراد ترجمة الصفدي في (طبقات الفقهاء) في بعض نسخ كتابه : « واعلم أن في عدّ المذكور والذي قبله (يعني المؤرخ ابن حبيب)في طبقات الشافعية تساهلاً ، وإنما أردت معرفة ترجمتهما ، وكثير من أصحاب الفنون إنما يُذكرون في طبقات الفقهاء ، لمعرفة تراجمهم ، وأنهم منسوبون للشافعي رضي الله =

رأي البرهان ابن جماعة

للبرهان ابن جماعة (ت ٧٩٠هـ) تعليقات على بعض كلام الصفدي ، كتبها في حواشي بعض مصنفاته ، فمن ذلك ما كتبه في الجزء الثامن من (التذكرة) عند ترجمة رتن الهندي (ت ٦٣٢هـ) أحد أشهر الكذابين على رسول الله ﷺ ، الذين ادعوا الصحبة والتعمير ، وقد كتب البرهان تعليقه ، مؤيداً علماء السنة والحديث ، الذين أنكروا دعوى رتن ، وعلى رأسهم الإمام الذهبي ، ومعارضاً ضحالة فكر الصفدي ، المناصر في حقيقة الأمر ، بتجويزه العقلي لكذبة رتن ، عقيدة الطرقية الصوفية في هذا الكذاب الهندي ، فإنهم يقولون في كتبهم عنه : أبو الرضا رتن رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ[1] .

قال البرهان ابن جماعة في تعليقه : « هذا الذي ذكره شيخنا الذهبي هو الحقّ ، وما صدّر به الصفدي من تجويز الوقوع لا يقتضي الوقوع ، فكم من

= عنه« . طبقات الشافعية : ٣/ ٨٩ ، ٩٠ ، ولكن يبدو أنه رأي خالفه فيه أصحاب الطبقات ، حتى بلديُّ الصفديّ وعصريه : شمس الدين العثماني الصفدي لم يذكره في طبقاته الشافعية . انظر : (طبقات الفقهاء) له . مخطوطة المحمودية : رقم ٢٥٥٣ ، ولابن قاضي شهبة حمل عليها شديد (قال إنها محشوة بالأوهام . طبقات الشافعية : ٣/ ٣٧) .

(١) نفحات الأنس ، للجامي : ص٦٠٩ (ترجمة رضي الدين لا لا) وكل من زعم إمكان رؤية النبي ﷺ يقظة نهاراً جهاراً ، بعد لحاقه بالرفيق الأعلى فالمنتظر منه تجويز دعوى رتن ، أو فإنه يتناقض إن أنكرها وقبل إمكان ذلك ، ارحم اللهم الإمام الشافعي ، فإنه قال محذراً غبّ الدخول في التصوف : « لو أن رجلاً تصوف من أول النهار لم يأت عليه آخره إلا وجدته أحمق » (مناقب الشافعي ٢/ ٢٠٧) .

جائز ليس بواقع . وأما إنكار التردد فيه والشك فخبطٌ لا يلتفت إليه ، والصواب عدم التردد في بطلانه ، وليس الصفدي من رجال هذا المقام »[١] .

وللبرهان تعليق آخر على بيتين للصفدي رأى قصور فهم له لشعر للرازي الطبيب (ت ٣١٣هـ) ، أنقل لك آخره وهو قوله : « . . . وما أقبح بالرجل أن يتعاطى ما لا علم له به ، يريد أن يعلو فيهبط » ![٢] .

❊ ❊ ❊

(١) سلوة الغريب ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) الجواهر والدرر : ١/ ٣٨٤ ، ولكن خالفه ابن حجر في اعتراضه ذلك ، وإن كان هذا لا يعني تغير رأي الحافظ في الصفدي .

مثالُ فَهْمِ مَنْ « ربما شارك في الفَهْم »!!

إنْ شئت قلتَ في الاعتذار عنه : لعله استصعب من كتاب السبكي شيئاً لبُعْدِه من فنّه ، وهذا يَرِدُ ، ولكنك تقف على كلمةٍ له في « غَيْثِه » ، لا تقتضي وقوفه على عويص مسائل الفقه وأصوله ، حتى يفهمها فهماً صحيحاً سويَّاً .

هذه الكلمة التي أنقلها من « شرحه » على لامية العجم ، من الأمثلة على تُصحّح قول السبكي في فهم الصفدي لكتب الفقه .

قال ـ والكلام على غسل الشهيد ـ : « . . . وقال الشافعية : إنما الغسل لأداء الفرض ، ولا فرض ، فالشهيد بالشروط المذكورة هو أعلى رتب الشهادة ، وبعض الفقهاء اشترط في الميت « عشقاً » الكتمان والعفاف ، لقوله (: من عشق فعَفَّ ، فكتَم ، فمات فهو شهيد[1] ورأيت بخطِّ الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في « الروضة » قد أطلق ولم يشترط شيئاً ، بل قال : (والميت عشقاً ، والميتة طَلْقاً)[2] ، وهذا عجيب منه !! كيف تساهل

---

(١) نقل الصفدي بعض نقد العلماء لهذا الحديث الموضوع .
انظر : المنار المنيف : ١/ ١٤٠ لابن القيم وله في « الزاد » ، و« الجواب الكافي » وغيره مزيد كلام عليه ، وللشيخ الأديب العالم : أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، بحث في الحديث نفسه ، وذهب فيه إلى أنه لا يصح مرفوعاً ، وأنه ثابت من كلام ابن عباس رضي الله عنهما . انظر : « بطلان حديث : من عشق فعفّ » للشيخ الفاضل .

(٢) الروضة : ٢/ ١١٩ .

في هذا الموضع ؟ وما هي طريقته ؟ وقد جزم بتحريم النظر إلى الأمرد بشهوة ، وبغير شهوة. . . »[١] .

قال أبو الفضل القونوي : هذا قيدٌ مُهِم ، يُعرف به أنّ خليلاً الصفدي إذا « شارَكَ في فَهْم » كتب الفقه ، كان منه هذا الفَهْم ! ! .

إنّ هذا الرجل المولع بوصف المردان ، و« الخال » ، و« العِذار » ، قد سحب مفهوم « العشق » عنده[٢] على مفهوم الإمام النووي له ، وشتّان ماهما ، ذلك أنه ظنّ تناقضاً في كلام النووي ، كأنه سأل : كيف يعشق ويعَفُّ ، ويموت شهيداً ، مَن قد حَرُمَ عليه أن ينظر إلى الأمرد بشهوة أو بغير شهوة ، ثمّ تساهلت هنا ، فعددته شهيداً على الصفة المذكورة ؟![٣] .

أَيْ خليل ! ، لم يَعْنِ الإمام النوويُّ بقوله : « والميت عشقاً » إلا عاشق النساء ، لا مُتعَشّق الولدان والغلمان ، « لأنَّ المفتَتِن بالنساء يقدِر على التوصّل إليهن بسبب مباح ، وليس الافتتان بالمُرد كذلك »[٤] ، وهل العشق في لغة العرب ، ومن بقي على فطرته من البشر ، إلا لبنات حواء ؟! ، ألا ما أفسد ما فهمتَ به كلام الإمام النووي ! !

وقد يرِدُ أن الصفدي أوْمَأ بسؤاله : « ما طريقته ؟ » إلى طريقة القائلين

(١) الغيث المسجم : الورقة ١٨٧، والمطبوعة ١/ ١٦٥ ، ١٦٦ ، وانظر كلام الإمام النووي عن النظر إلى الأمرد في « الروضة » : ٧/ ٢٤ ، ٢٥ ، ٩/ ١٠٣ .

(٢) قال الصفدي في ترجمة أمير مملوكي : « . . . له صورة سبحان من أبدعها ، ولو شاء لذهب بالشمس وأطلعها ، بديع الجمال ، وافر الحسن. . . ، وكان ممن يحبه ويهواه الأمير سيف الدين تنكز ـ رحمه الله تعالى ـ ولكنه كان يحب من غير إتيان محرم ، أو معصية غير النظر !! » . الأعيان ، ٢/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٣) انظر : المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي : ص ٥٠ .

(٤) الفتاوى الموصلية للعزّ بن عبد السلام : ٨٥ .

بـ« الشاهد » من الصوفية ، الذين يتعبدون بعشق الأمرد ، والنظر إلى صور الحسان[١] ، مالم تكن بفاحشة ، فإنها محبة لله بزعمهم ، يعتقدون أن ذلك الأمرد مَظْهر جماله ـ والعياذ بالله ـ فمن كان هذا معتقده لا يكون « شهيداً » ، وإن عَفَّ ما عَفّ ، وكَتَم ما كَتم ، حتى يفطس !! والنوويّ صوفيّ من أضداد ذاك المشرب ، يعلم أن صحبة المردان « من أصعب الآفات في الطريقة »[٢] .

هذا فهمٌ للصفدي ، وله في الفنِّ الذي زعم أنه طوع بنانه (الجناس الطبيعي) ، قِصَر فهم ، يناسبه أورده ابن حجة الحمويّ ، وإني أنقل لك من كلامه قوله : « ومن غريب ما يحكى أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال في « شرح لامية العجم » وفي كتابه « جنان الجناس » لما اعترضه الجناس المعنوي ، قال : هذا النوع عندي باطل ، ولم يتيسر له منه نَظْم بيتٍ واحدٍ مع كثرة تهافته على الجناس وأنواعه ، والذي يظهر لي أنه عجز عن نظمه ، فإنه

---

(١) مثل : أحمد الغزالي (ت٥٢٠هـ) الوافي : ٨/ ٧٨ ، وابن كثير : ١٢/ ٢١٠ ، وقد سجل ذلك مصدر مولوي « معتبر » عند القوم ، أعني « مقالات شمس الدين التبريزي » ، جاء فيها ما يلي : « والتصريح بهذا الذي سأقول غير مستساغ ، ولكن أحمد (الغزالي) كان متيّماً جداً بوجوه الحسان ، لكن من غير طريق شهوة!! لأن ما كان يبصره ، غير الذي يراه غيره من الناس ، لو قطّعوه إرباً ما وجدوا فيه ذرة من شهوة!! انتهى كلام التبريزي ، انظر « المقالات » ١/ ٣١٣ ، ولمعرفة المزيد عن اصطلاح الصوفية في تبريرهم لهذه الشهوة المحرمة ، انظر مبحث ذلك في كتابي : « الصوفية القلندرية » : ص ٤٦ ، وفي « الطالع السعيد » بعض الحديث عنه : ص ٢٢٦ ، ونقله الصفدي في « الأعيان » : ٢/ ٢٧٢ ، وانظر ما حكاه مؤلفه عن أبي حيان الأندلسي ، ص ٥٨٤ ، والوافي : ٥/ ١٨٠ ، وكان أبو حيان ممن حذر من هذا الضرب من الوجودية انظر : « تنبيه الغبي » للعلامة البقاعي ص ١٤٢ .

(٢) الرسالة القشيرية : ٣٦٢ .

قال في غضون ذلك : وقد استخرجتُ من شعر أبي الطيب المتنبي من الجناس المعنوي قوله :

حـاولْـنَ تَفْـدِيَتـي وخِفْـن مُـراقبـاً فـوَضَعـن أيـديهـنّ فـوق تـرائبـا

وهذا مما يدلّ على أنه لم يفهمه »!![1] .

وقد ترى أنّ في اتهام الصفديّ عصريّه ابنَ الوردي بالإغارة على بعض معاني شِعره ، وأنه « قد اغتصبها واختلسها »[2] ، وإنشاده في ذلك ما ادعاه دليلاً زيَّفَه عليه ابن حجر العسقلاني بقوله : « ولم يأت بدليل على أن ابن الوردي هو المختلس ، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك !! »[3] شاهد على حكم الدماميني ، وابن حجة الحموي فيه ، ومذكر بالمثل القائل : « رمتني بدائها وانسلّت » .

* * *

(١) خزانة الأدب : ١/ ٤٦٧ ، وقد قال ناشر كتاب الصفدي « غوامض الصحاح » في مقدمة تحقيقه متحدثاً عن المآخذ عليه : « يبدو أن المؤلف كان في عجلة من أمره فلم يكن دقيقاً في ترتيب الكلمات. . . » ص ٣٤ ، قلت : لا عليك من ذكره العجلة ، واعتبر قوله « فلم يكن دقيقاً » هي الأشبه بما كان .

(٢) الأعيان : ٣/ ٦٩٣ .

(٣) الدرر : ٣/ ١١٦ .

لا تقولوا : شاعر!![١]

جعل ابن فضل الله المحبي (ت١١١١هـ) خليلاً من اللُّكن في كتابه في (الدخيل) حين قال في باب الباء : « (بابا) بمعنى مُزَيِّن ، عامية قبيحة ، وكذلك (البابا) لرئيس الدباغين ، وفي (معيد النعم) : أنه الذي يغسل الثياب[٢] ، ولم يستعملها إلا بعض اللّكن كالصفدي في قوله :

أحببتُ باباً حسنه بارع يسبي مِن النُّسّاك ألبابا

أُغلق في وجهي باب الرضا فهل تراني أفتح البابا »[٣]

قال أبو الفضل : وقد تعلم أن جعل الصفدي من اللكن من قِبَلِ المجيِّ حكم منه على « شاعريَّته » ، وأنها « لكناء » أيضاً!! ، والسؤال الذي يحضرني : أكان الذي انتقى من أبيات الصفدي بيتين عند ترجمته له ، ثمّ تابعه أهل التراجم في إيرادهما ، أكانوا جميعاً يعدُّونهما من « مُعجِز خليل » (قياساً على تسمية المعرِّي لبعض أبيات المتنبي معجز أحمد)!! أم هو النقل بالمسطرة ؟! وهما قوله :

---

(١) وربما تقف على استثناء مما وصفت (تاريخ ابن كثير : ١٤/ ٣١٢) فليس ذلك برافع رتبة شعره ، وشعر أمثاله إن كانت لهم أبيات حسان ، والعكس صحيح ، فإن نقَدات مُحِقَّة قيلت في أبيات لعبقري الشعراء : المتنبي (ت ٣٥٤هـ) لم تؤثر في سُموّه شاعراً .

(٢) معيد النعم ومبيد النقم : ٨٦ .

(٣) قصد السبيل فيما في العربية من الدخيل : ١/ ٢٣٣ .

بسهم أجفانه رماني وذُبتُ من هَجْره وبَيِنه
إن متّ مالي سواه خصمٌ لأنه قاتلي « بعَينه »

وقوله :

يا من أتاه أهل المودة أوْلمَ أنا محبُّك في القومِ أوْ لمَ

وهذا في النزول يُذَكّر ببيتٍ لابن بَصْخان المقرىء :

ارحموا معذباً يبكي فَقَدْ فقَدْ إلْفه وقلبه مِن لهيبٍ وَقَدْ وَقَدْ[١]

وقال الصفدي :

نظرتُ إلى الرياض ولي مجاز يؤديني إلى المعنى الحقيقي
فكم أبصرت من آسٍ تبدّى وما اندملت جراحات الشقيق [٢]

ألا تَسْتَبردُها أبياتاً ، ولو كنتَ في تموّز !!

أما هذا البيت ، وهو قوله :

ومرَّ على غيري سقام وصحة ولم يرَ قان مثل ذي يرقان

فقد نقل مصدر عن ابن حجة قوله : « رأيتُ بخطّ الشيخ بدر الدين البشتكي تحت هذا البيت : وإنّ مَن ذلك مبلغه من النَّظم لجديرٌ أنْ يقعد مع صغار المتأدبين »[٣] ، وناهيك ببدر الدين البشتكي خبيراً بالصفدي ، حتى إنّ صاحب « نفح الطّيب » لما وقف على بعض سوء فهم الصفدي للشعر فرح أن كان مشاركاً للبدر ، في ما أحس به من ضعف رأي خليل في بيت شعر ذكره ، وقال : « فحمدت الله على الموافقة »[٤] .

---

(١) الدرر : ٣/ ١٨٩ .
(٢) مسالك الأبصار : ١٢/ ٥٠١ .
(٣) أنوار الربيع في أنواع البديع : ١/ ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٤) نفح الطيب : ٤/ ٢٦٢ .

وهذا علامة اليمن الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) مع إيراده البيتين الذين أسميتهما من (معجز خليل) فقد أدرك عيوب نظمه لما قال : « ... ولكثرة ملاحظته للمعاني البديعية صار الغَثُّ مِن شِعره كثيراً ، وينضمّ إلى ذلك ما يطريه به من المبالغة في حسنه ، فيزداد ثقلاً »[1] ، وسبقه إلى ذلك عالم الأدب ، ابن معصوم (ت١١١٩هـ) الذي قال فيه مع إعجابه ببعض نظمه : « ... وجاء بالغثّ أكثر من السمين »[2] .

ومع ما قال النقاد فيه ، فقد ضلّ عن « المعنى الحقيقي » لرُتبةِ نفسه في الأدب والشعر ، حتى أخذته سَكرة كِبره وتعالمه ، فانتفخ نفخة مزرية في موضع من شرحه (الغيث) جعلته يقول : « ... وأنا وغيري ، من أئمة الأدب الذين لَطُفَ ذوقهم... ؟!! »[3] ، فيالها إمامة مِنْ (نُفَّاخة) !!

وأقول : ليت نظمه إذ كان غثاً كان مقبولاً ، فقد قال منَ « الشعر » أتفهَهُ ، بل جاء بهابط المعاني المنكرة التي تعاناها شعراءُ السَّفَهِ والهَذَر ، في القرن السابع والثامن الهجري ، من وصف المردان والغلمان ، ونظم ضروب الخنا والمجون التي يعدونها من « الصنعة » ، وكم من شعر « فاضح » قاله ، قد كان امتلاءُ صدره قَيْحاً حتى يَرِيَه خيراً له مِن قوله .

و قال صاحب « سحر العيون » تعليقاً على كتاب الصفدي (كشف الحال في وصف الخال) : « .. اجتهد فيه ولم يقصر في تحصيل الجناس المصحّف ، لكنه لبس فيه ثوب الخلاعة »[4] .

---

(١) البدر الطالع : ١/ ٢٤٤ ، وقد أبدى الشوكاني إعجابه بعنوان كتاب الدماميني ، ولا يظن أن إعجابه بمحتواه أقلّ من ذلك ، انظر ٢/ ١٥٠ .

(٢) أنوار الربيع : ١/ ١٢٧ .

(٣) الغيث المسجم : ٢/ ٣٩٢ .

(٤) كشف الظنون : ٢/ ١٤٨٨ ، ولم أر في المطبوع ما يستحق ما قاله .

قال أبو الفضل : مَن قرأتَ لهم من الأئمة والمؤرخين يمدح شعر الصفدي ونثره ، ويصفه بأنه كان رأساً في صناعة الإنشاء!! ثم ينعت أشعاره بأنها فائقة!! فذلك إخبار بذوقهم الأدبي[١] ، ونحن في حِلّ من موافقتهم عليه .

والحق إن خاتمة أمره في علم الله تعالى لعله قال يوماً بصدق لا هزل فيه :

أستغفرُ اللهَ مِن شعرٍ تقدَّمَ لي ... في المرد قصدي به ترويجُ أشعاري[٢]

* * *

(١) من الكتب التي تفيدك ـ أديبَ اليوم ـ معرفةً بأذواق تلك الحقبة كتاب : مطالع البدور في منازل السرور ، للغزولي (ت٨١٥هـ) فإن فيه « متخيره » من أبيات للصفدي وغيره . رأيت طبعة عتيقة منه ، طبع الجزء الأول سنة ١٢٩٩هـ ، والثاني ١٣٠٠هـ ، في مصر ، وكتاب : عقود اللآل في الموشحات الأزجال ، للنَّواجِي (ت٨٥٩هـ) ، وأشباهها .

(٢) البيت لابن الوردي في ديوانه .



الفصل الثاني

موقف الصفدي من ابن تيمية



ملازمته خصومه

كان الصفدي ملازماً خصوم شيخ الإسلام ، من أمثال : صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ)[١] الذي أدركه ، ثم تخرّج ـ بعدُ ـ على عُشرائه من « أهل الأدب » ، مثل القِحْفازي (ت٧٤٥هـ) ، ونجم الدين الصفدي (ت ٧٢٣هـ) ولقد كان وصْف أبي حيان الأندلسي لأهل الأدب في المشرق صريحاً ، حين أخبر أنهم يحبون « الشراب والشباب والطرب »!![٢] .

والمرء بشيخه الملازم له ، يأخذ عنه العلم النافع ، والخُلق الرَّضيَّ وقد يَثقَف ضدّ ذلك ، إن كان الشيخ على عكس ما يُمدح به ذو العلم ، وكان ابن الوكيل ـ مع علمه وفقهه ـ صاحب لهوٍ ولعب ونظمٍ ، من الضَربِ الذي سلَف عَيْبُه ، حتى إنَّ أبا العباس ابن تيمية لما سمعه يُنشد في مجلس بعض ذلك ، وَعَظَه مُنكِراً عليه قول ما لا يليق بأهل العلم والحِجا[٣] .

---

(١) ترجمته في « ذيل تاريخ الإسلام « : ١٤٦ ، والأعيان : ٥/٥ ، وابن كثير : ١٤/ ٨٢ـ ٨٣ ، وفي طبقات السبكي : ٩/ ٢٥٣ .

(٢) الطالع السعيد : ٣١٣ ، والأعيان : ٣/ ٥٦ .

(٣) « وكان له (ابن الوكيل) أصحاب يحسدونه ، ويحبونه . . . ، وقد كان مسرفاً على نفسه ، قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش ، وكان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية ، ويناظره في كثير من المحافل والمجالس ، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه ، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه ، وناحيته ، وهواه « . . أورده ابن كثير في تاريخه (١٤/ ٨٢ ، ٨٣) ولا شك أنه نقل هذه (المعلومة) ممن هم أكبر سناً منه . أماالنجم الصفدي ، فكان أول من تخرج عليه (خليل) . انظر ترجمته : الأعيان : ٢/ ٢٣٢ ، وذيل تاريخ الإسلام : ٢٠٩ ،=

ولعل معرفة أهل عصره بمشرب ابن الوكيل في الشعر ، ووقوفهم أيام : بَيْبَرْس الجَاشْنكِيْر (ت ٧٠٩هـ) [(١)] على مشاركته في إصدار فتوى تُبرّر للمُتَوثّبِ « الانقلابي » الجاشنكير خَلْع سلطانه : الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ) جعلهم يُصدِّقون أنه من هجاه بقصيدة مقْذِعة في السلطان (المخلوع) التي منها :

ما للصبيّ ، وما للمُلك يطلُبُه   إن المرادَ من الصبيان معلومُ[(٢)]

كان الصفدي أشعرياً ، شافعياً متعصباً ، يَقْرُبُ تعصبه من تعصب العامة ، يُرى ذلك في مواضع من تاريخه ، مثل تعليقه على زعم بعضهم أن الغزالي كان مجدّد المئة الخامسة ، والفخر الرازي المئة السادسة ، وابن دقيق العيد المئة السابعة ، فقال : « ومن سعادة الشافعية أن الجميع شافعيون ! ! »[(٣)] .

ولكنه انساق بروح العامية في بعض ما كتب إلى شفيرَ هَلكةٍ ، حين سجل بهتان متعصبة الأشاعرة المتصوفة (مُتبنيّاً له لا ناقلاً) ، في الإمام المصلح ، رجل الأمة ، وداعية الكتاب والسنة : أبي العباس ابن تيمية ، وإذْ قال ذلك البهتان فذلك الخَطْب لا يُمَرّ عليه دون تَعقّبٍ ونكيرٍ .

= قلت : وقد ترفع شيخ الإسلام عن النيل من خصمه (ابن الوكيل) إلا بما يجيزه الشرع ، حين وصفه بما فيه فقال : إنه مخلط على نفسه ، متبع مراد الشيطان منه . ويفهم أن له لجاجاً وشغباً عند مناظراته مع أبي العباس ابن تيمية لما قال له شيخ الإسلام مرة : « المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء ، واستماع ، وتدبر . . . » . انظر : ترجمة ابن تيمية ، لابن عبد الهادي : الورقة ٤١ .

(١) وفي ترجمة الصفدي له في : الأعيان ٢/ ٧١ ـ ٧٣ ، عبارات يفهم منها مدح الجاشنكير ، وذم السلطان الناصر ، وتفسير ذلك في الفصل الأخير من الكتاب .

(٢) أعيان النصر : ٥/ ٢٧ ، ١٠ ، ٢/ ٧٢ ، وفيها حكاية تلطف ابن الوكيل في الدخول إلى السلطان حتى حانت فرصة ، فدخل عليه ، وأنشد فيه مدحة ، فعفا عنه ، وانظر : دفاع التاج السبكي عنه في طبقاته : ٩/ ٢٥٣ .

(٣) الأعيان : ٤/ ٥٧٨ .

نَظْرةُ خبيرين!

وقبل أن أذكر ما قاله الصفدي من نتاج تعصبه ، وتقليده لشيوخه ، أنقل لك كلاماً لأبي عبد الله الذهبي يصف به شيخ الإسلام ، وما كان من أعدائه نحوه ، قال« : . . فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه ، مقرون بسرعة فهمه ، وأنه بحرٌ لا ساحل له ، وكنزٌ لا نظير له ، وأنّ جوده حاتميٌّ ، وشجاعته خالدية ، ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً ، منصفهم فيها مأجور ، ومقتصدهم فيها معذور ، وظالمهم فيها مأزور ، وغاليهم مغرور ، وإلى الله ترجع الأمور ، وكلّ أحد يؤخذ من قوله ويترك ، والكمال للرسل ، والحجة في الإجماع ، فرحم الله امرأ تكلم في العلماء بعلم ، أو صمت بحلم ، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم ، ثم استغفر لهم ، ووسع نطاق المعذرة ، وإلا ؛ فهو لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري!!

و إن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم ، ولا تعذر (اقرأ : ولم تعذر) ابن تيمية في مفرداته ؛ فقد أقررتَ على نفسك بالهوى ، وعدم الإنصاف!! »[١] .

ثم تأمل مع هذا « التحليل » كلامَ شيخ الصفدي ، العلامة ابن سيد الناس (ت ٧٣٧هـ) غفر الله له ورحمه ، الذي « وثّق » في كلمةٍ قالها جانباً مهمّاً في « طبيعة » بعض من عادى أبا العباس ابن تيمية ، فقد قال بعد أن جعلهم بين مُجاهرٍ بكفره ، ومخاتلٍ في عدائه : « . . . وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالاً

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام : ٢٦١ .

من المخاتل ، وقد دبَّتْ إليه عقاربُ مكرِه . . . »[١] .

إن كدت لأقول : كانا يعرِّضان بالصفدي ؟! لكن الذي لا يُرتاب فيه أنهما وإن لم يَعنِياه ، فإنَّ إدانتهما واقعة على شيوخه في المحصَّل ، وهو جزؤهم الذي لا يتجزأ!!

فما هذا الذي اجترمَه الصفديّ حتى أبيْتُ أن يُسلك بين رهط صالحين من علماء ، وطلبة علم ، وغيرهم من أصناف المجتمع ، أطلقت بعض المصادر على الرجل بعد الرجل منهم وصفاً كان على جبين الدهر (شارة) تلألأ : « كان من أصحاب ابن تيمية » ؟[٢] .

* * *

---

(١) أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤالات ابن أيبك الدمياطي : ٢/ ٢٢٢ ، قلت : يبدو من كلام ابن سيد الناس معرفته أسماء المخاتلين ، الذين ربما عرفهم في مجالس الطرب لبعض الأمراء ، التي حكت بعض المصادر حضوره فيها . وكان من رأي الصفدي في شيخه ابن سيد الناس ، مع مدحه له قوله : « . . . وكان صحيح العقيدة ، جيد الذهن ، يفهم به النكت العقلية ويسارع إليها ، ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل ، ولو كان اشتغاله على قدر ذهنه بلغ الغاية القصوى . . . »!! الأعيان ٥/ ٢٠٨ .

(٢) وكون الرجل من أصحابه يعني ـ في الأغلب ـ أنه على عقد طيب ، ونصفة ، دع ما سواهما من العلم والفضيلة ، وأرجو أن تتأمل قول الصفدي عند عدّه مؤلفات شيخ الإسلام : « . . . ولكن أذكر ما تيسر منها ، وإلا فهي أكثر مما أوردته في هذه الترجمة ، ولعل بعض أصحابه يعرفها » قلت : أليس هذا إخراج لنفسه من « أصحابه » ؟ بلى ، ولو كانت الشواهد التي جئت بها هنا مجهولة أمكن فهم العبارة بتأويل يُدخله في جملتهم . الوافي : ٧/ ٢٣ ـ ٢٥ .

أقوالٌ مغرقة في الإجحاف!!

كان ألدُّ خصوم ابن تيمية ، القاضي الرفاعي محمد بن السراج الدمشقي ، يرى جهاد شيخ الإسلام للرجوع بالأمة لما كان عليه السلف الأول بما يتوقع منه ، وذلك قوله : « فيا أسفاً عليه وعلى أمثاله ، كيف ضاعت أعمارهم ؟ وخابت مساعيهم ؟ ووضعوا الشيء في غير موضعه ؟ وهلكوا وأهلكوا ، ولم يبق للوعظ فيهم مجال ، ولا للنصح عندهم محلّ ، وإنا لله وإنا إليه راجعون »[١] .

ولا تُبْعِدُ إن قلت: إن هذا رأي جُلّ خصومه الدمشقيين ، سمعه الصفدي من أمثال ابن السراج ، فَسَرَّبَهُ في بعض مصنفاته ، ولكن في سياق يناسبُ مَنْ قلّ فهمه!! جاء في تَرْجمَتِهِ لشيخ الإسلام قوله : « . . . وَضيّع الزمان في رَدّه على النصارى ، والرافضة ، ومن عاند الدين أو ناقضه ، ولو تصدى لشرح البخاري ، أو تفسير القرآن العظيم ، لقلّدَ أعنان أهل العلوم بِدُرّ كلامه النظيم »[٢] .

هذا « الحريص » على الزمان ـ عدوّ نفسه ـ ألم يتحسّر يوماً على ما أضاع من زمانه وهو يتكلف التصنيف إلا يكن لجميع ما كتب فللتفاهات التي كانت أكثر نتاجه؟

---

(١) تفاح الأرواح : المنقول ١٩٤ .

(٢) أعيان العصر : ١/٢٣٦ ، قلت : ستلحظ بعد قليل أن « الدّرّ النظيم « عنده لا يزيد عن كونه من مرادفات : « الزخرف » ، وذلك حين تمَدَّح شيخه « الذي كانت له به خصوصية » : تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ) انظر طبقات الشافعية : ١٠/١٦١ .

ثمّ أتى في موضع آخر بأخت كبيرته السابقة ، بل بأعظم أثاماً منها ، فلو قالها محلّق في ذُرى السحاب لأخذتْ جريرته فيها بأُذنيه نُزولاً في مهاوي التكذُّب .

قال ، (والحظْ سياق الكلام ، وتصديرَ منكره بحقّ لا يُحتاج إلى شهادته فيه ، كمن يريد تخفيف وَقْع ما سيصدم القارىء به) : « . . . وهذا شهاب الدين السُّهْرَوردي ، وهو المقتول ، حَبَسه الظاهر ، غازي بن السلطان صلاح الدين ، بإشارة من والده . . . ، فقيل لوالده السلطان صلاح الدين إنه يُفسد عقيدة ولدك ، فكتب إليه أن اقتله بلا معاودة فقتله . . . . ، وأكثر الناس على أنه ملحد لا يعتقد شيئاً ، وأنه إنما قتله قلة عقله ، وكثرة كلامه ، ويقال : إن الخليل بن أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ اجتمع هو ، وعبد الله بن المقفع ليلة فتحدثا إلى الغداة (الذي ورد عند ياقوت : أنهما تحادثا ثلاثة أيام ولياليهن)[1] ، فلما تفرقا قيل لابن المقفع : كيف رأيته ؟ قال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه . وكذا كان ابن المقفع ، فإنه قتلَه قِلَّةُ عقله ، وكثرة كلامه ، شرَّ قِتْلَة ، ومات شرَّ ميتة ، قلتُ : وكذا ـ أيضاً ـ كان الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ـ علْمُه مُتَّسعٌ جداً إلى الغاية ، وعقله ناقصٌ يُورّطه في المهالك ، ويُوقعه في المضايق ! !

وما أحسن قول القائل :

الصَّعْو[2] يَرتعُ في الرياض وإنما حُبِسَ الهَزارُ لأنه يَترنَّمُ »

---

(١) معجم الأدباء : ٣/١٢٦٨ .

(٢) الصّعو : عصفورٌ صغير ، والهزار : العندليب .

ثم ذكر أنه رأى الكثير من ذوي المنظر والرواء ، الذين لهم في النفوس أبهة وعظمة ، لكنه إذا تكلم انسلخ مما كان فيه، ورمي بالهوان[١] .

ثم تقرأ في « أعيانه » صفة ما افتراه في شيخ الإسلام ، في أحد المعجبين بأبي العباس ، وإنه لموضع مهم في بيان موقفه قال : « . . . وكان له قُدرة على الحفظ . . . ، زكياً في نفسه ، ليس لطلبه نهاية ، يحرص على أن يسلك طريق الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، ويأخذ في كل بلية!! ويشتهي أن يحيط بالأشياء علماً!! وألا يدع علماً ، ولا غيره حتى يملكه فهماً ، فلذلك ضيع الزمان!! . . . » .

واهاً لمغْمَضِ العقل ، فقير الإنصاف ، لا يَرى الرجلَ مخطئاً من ذاتِ نفسه في « تضييع الزمان » حتى يريَ قُدوَتــه السببَ في ذلك (إذا كان التابع على صفة المتبوع في زعمه) ، كأنه « متحدّثٌ رسميّ » على لسان الخصوم يعلنها : أنّ مَن سار على طريقٍ يروم الاقتراب فيها من نهج ابن تيمية ، فحُكْمُه ومآلُه ، حكمَه ومآلَه!! تخيروا من ألفاظ « الجرح » ما يناسب صاحب « الوافي » ، غير أني اخترتُ له لفظة كانت تَرِدُ على لسان أستاذه أبي حيان الأندلسي ، بصيغة الجمع ، حين كان يقولها عن نفسه ، مورّياً بتلاميذه : « أنا أبو حيَّات »!![٢]

---

(١) الغيث المسجم :الورقة ٢/ ٢٣٧ والمطبوعة ٢/ ٤٣٧ : قلت : وهاهنا « ببغاوات » ردّدوا قبله هذه الأكذوبة ، وكانوا سماعين لخصوم أبي العباس ـ رحمه الله تعالى ـ منهم : النويري (ت ٧٣٣هـ) في نهاية الأرب : ٣٣/٢٧٦ ، ٢٧٧ ، وابن الجزري (ت٧٣٨هـ) في تاريخه : ٢/ ٣٠٩ ، لا يُدرى من الذي نقل هذه الفرية إلى مسامع ابن بطوطة ، وهو الذي أخبر أن (الدماشقة) يحبونه ، فقريب الاحتمال أن متعصباً من الملأ في دمشق وسوسه بها في أذنيه فحدث بما سمع ، فكتب كاذباً : « يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً » . انظر : الرحلة : ١١٢ .

(٢) تاريخ ابن الوردي : ٢/ ٤٨٥

أرأيت إن جُرِحَ بمفرد (حيَّات) أكان ذلك فوق ما يستحقّ؟

قالوا عن الصفدي في ترجمته : إنه اعتراه بآخرة ثقل في سمعه ، فهاك ما يجوز أن يكون مثالاً على ثقل سمع مبكّر عنده أدى إلى سوء تبليغ العبارة ، وإن كان المثال على ثقل فهمه أدلّ ! ! ، قال الصفدي : « . . . حدثني من أثق به أن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ـ كان يقول : ما أظن أن الله يغفل عن المأمون ، ولا بدّ أن يقابله على ما اعتمده ، مع هذه الأمة ، من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها . قلت : إن المأمون لم يبتكر النقل والتعريب ، بل نقله قبله كثير ، فإن يحيى بن خالد البرمكي . . . »(١) إن قوله : « ما أظنّ أن الله يغفل . . . » ، وقوله : « ولا بدّ أن يقابله على ما اعتمده . . . » ليس دقيقاً في رأيي وما أتهم إلا الصفدي .

أما فهمه لرأي شيخ الإسلام في الموضوع ، فهو كما ترى وأعجب منه تعالمه خلال ذلك ، وبخاصة عند ترجمة شيخ الإسلام في « الوافي » ، عند نقله قوله لرفاعي أظهر تحدياً لأبي العباس بالقدرة على دخول نار تأجّج ثلاثة أيام ، ثم خروجه منها سالماً ، وأنّ شيخ الإسلام قال له : أنا ما أكلّفك ذلك ، ولكن دعني أضع هذه الطوّ افة في ذقنك ، فجزع ذلك الفقير ، وأبلس . فعلّق الصفدي قائلاً : « وقد نقل الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ هذا من قول بعض الشعراء في النار ، التي يزعم النصارى ؛ أنها تنزل يوم سبت النور (١) من المساء إلى القمامة (٢) بالقدس :

لقــد زعــم القِسيّــس أنّ إلهــه ينّــزل نــوراً بكــرةَ اليــومِ أو غــدِ
فـإن كـان نـوراً فهـو نـورٌ ورحمـةٌ وإن كـان نـاراً أحـرقـتْ كـلّ معتـدِ

---

(١) انظر : صبح الأعشى ٢/٤٥٦ .
(٢) كنيسة ، وتعرف باسم « القيامة » أيضاً

يُقَــربهــا القسيّــسُ مِــن شَعــر ذقنــه   فإن لم تُحرّقفها وإلا اقطعوا يدي

عوذاً بالله منك ، حتى ابن تيمية ترميه بعادتك في (السرقة) من أي طريق جاءك الخبر فقطعت أن ثمة أخذاً فيما رويت؟! « زعماً لعَمْرُ أبيكَ ليس بمَزْعَم!! » .

❊ ❊ ❊

التهوين من قوة حجاجه وإقناعه

يفهم موقفه هذا من وصفه لكلام ابن تيمية بأنه زخرف ، وذلك في نظم له تمدَّح به تقي الدين السبكي ، في عُدوانه على العلم ، وعلى شيخ الإسلام ، بكتابه المسمى « شفاء السقام » ، وإليك قول مَن يظهر مِن قوله أنه ما قرأ من كلام أبي العباس ابن تيمية شيئاً ، وليت شعري ، ما مقدار إفادة مَن إذا قرأ كتاب فقيه من الفقهاء ، قيل عنه إنه : « ربما شارك في فهمه « ؟!!

قال الصفدي :

لقولِ ابن تيمية زخرفٌ أتى في زيارة خير الأنامِ

فجاءت نفوس الورى تشتكي إلى خير حبر وأزكى إمام

فصنّف هذا وداواهم فكان يقيناً شفاء السقامِ[1]

وينفي عن نظمه هذا ، المجاملة لشيخه ، عبارته في ترجمة شيخ الإسلام ، التي تبدي رأيه وذلك حين قال : « . . وما دمّر عليه شيء كمسألة الزيارة ، ولا شُنَّ عليه مثلها إغارة. . . »[2] .

هذا النظم والكلام ، من آثار « إسفنجيّة « الصفدي الفكرية التي حذّر ابنُ تيمية يوماً تلميذه ابن القيم أن يكون على صفتها ، فانتصح ، فكان من

---

(١) الأعيان : ٣/ ٤٣٠ .

(٢) الأعيان : ١/ ٢٣٥ ، قلت : كان اسم كتاب شيخه : « شنّ الغارة على من أنكر سفر الزيارة « ثم غيّره . انظر شفاء سقامهم : ص ٣ .

المهدِيين ، ورفض خليل ، فَخَالَلَتْهُ شُبَه « المتكلمين » حتى بدا منه ما بدا .
قال يرثي السبكي :

مُوفّقُ الحُكْمِ والفتوى على رَشَدٍ ... ما ندَّ منه على ما قد مضى نَدَمُ
كم باتَ ينصرُ مظلوماً رآه وقد ... أُوذي وجانِبُه بالضعف يُهْتَضمُ
كان ابن تيميةٍ بالفضل معترفاً ... وهو الألدُّ الذي في بحثه خَصِمُ
يثني عليه وقد أبدى بفكرَتِه ... أوهامَه فيراها وهو يبتسمُ
وما أقرّ لمخلوقٍ سواه وفي ... زمانه كل حبر علمه علمُ [(١)]

وسأل شيخه السبكيّ ، عن كلمة نسبت إلى ابن تيمية ، وهي أنه قال حين سئل عن في « تفسير » الفخر الرازي : « فيه كل شيء إلا التفسير » ، فأجاب السبكي بقوله : « فيه مع التفسير كلُّ شيء »!!

لو عقل الصفدي لسترها على شيخه ، إذ أقلُّ ما يوصف به جواب السبكي أنه ملقى على عواهنه ، هذا والصفدي مَنْ سمع شيخه ابن سيد الناس يقول : « ما أعجب إلا من فخر الدين ، كونه وضع تفسيراً . أنت مِن أين ؟ والتفسير مِن أين!! »[(٢)] .

إن جواب السبكي لا يشبه جواب عالِم فصَّلَه الصفدي ، على شيخ الإسلام ابن تيمية لما قال عنه : « . . إلا أن هذا (يعني السبكي) أدقّ نظراً ، وأكثر تحقيقاً ، وأقعد بطريق كل فن تكلم فيه ، وما في أشياخه مثـله »!!

لقد كان الصفدي يمرّ على أكاذيب أشياخه المتكلمين و(المتأديين) في ابن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠/٣٢٦ ، قلت : يَحْسُن « شعر » الصفدي حين يصدق ودّه للممدوح . قارن من الناحية الفنية ما قاله في شيخ الإسلام ، بثلاث قصائد رثى بهن شيخه الحقيقي ، تقي الدين السبكي ، علي بن عبد الكافي .
(٢) الوافي : ٤/١٧٩ .

تيمية ، وما يدفع عنه شيئاً[١] وبخاصة إذا كان ظلماً مضاعفاً ، أعني مرة لابن تيمية ودعوته ، ومرة للذوق العربي وأدبه حين يكون في قالب من (بديعياته) كأبيات شافع بن علي العسقلاني (ت٧٣٠هـ) أحد كتاب الإنشاء فينقل قوله :

ولما أتانا ابن تيمية وحقّق بالخُبْرِ منه الخَبَرْ
أذَبْنا عقيدة تجسيمه بِرِيْقِ بَرِيقِ سيوف النظرْ

وقوله :

قالوا ألا تنظر ماذا جرى من حنبلي زاد في لغوهِ
فقلت : هذا خشكنان[٢] ، أنا والله ما أدخل في حَشوهِ[٣]

وتراه يشيد بغارة جاهلة أخرى ، إلا أنها أدخل في وصفها بالخرافة ، حين ترجم لخصم من خصوم شيخ الإسلام ، اسمه : نجم الدين بن أبي الدّرّ البغدادي (ت ٧٠١هـ) ، هذا الذي غاظه أن يكتب أبو العباس ـ رحمة الله عليه ـ فتوى في إبطال « الكيمياء »[٤] فكتب رسالة في الردّ عليه ، واقرأ تعبير

(١) الوافي : ٤/ ١٧٩ ، ٢١/ ١٦٩ ، ١٧٢ .
(٢) الخشكنان : الخبز الناشف ، وتطلق على نوع من المخبوزات . انظر : معجم الألفاظ التاريخية : ص٦٩ .
(٣) الوافي : ٢/ ٥١٢ .
(٤) ثَمّ « خطأ » من (الصلاح المنجد) تابعه عليه غيره في عنوان هذه الفتوى ، في الكتاب الذي جمع في تراجم شيخ الإسلام ، ص ٤٥ ، وكذا كتاب « الجامع لسيرة ابن تيمية » : ٣٥٩ ، ٣٨٢ ، فالصحيح كتابتها : « رسالة في إبطال الكيمياء وتحريمها » ، أما قوله : ولو صَحَّت وراجت ، فزيادة من تعليق الصفدي ورأيه فيها ، الذي بدا أنه يصدق خرافة أهل الكيمياء والتصوف بدعوى الإمكان العقلي . انظر : الغيث المسجم : ٢٠ ، ٢١ ، وانظر الفتوى التي قد تكون ما عناه الصفدي ، في مجموع الفتاوى : ٢٩/ ٣٦٨ .

الصفدي في كتاب الكيميائي : « . . . وقد ردّ عليه (يعني ابن تيمية) فيها ، وزيّف ما قاله »[١] .

وعلى ذكر « التزييف » ، فهذا موضع أذكرني بحكم « الباشا » أحمد تيمور في الصفدي الذي مرّ في أول الكتاب ، وذلك أنه أورد « معلومة » لها تعلُّقٌ بترجمة شيخ الإسلام ، فقد ذكر الصفدي في ترجمة : علي بن الحسين بن الجابي ، (ت ٧٠١هـ) خطيب جامع « جرّاح » بدمشق ، وكان رأساً من رؤوس أهل « الكيمياء » أنه حين مات و : « أبيعتْ كتبه ، جاء الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله تعالى ـ واشترى منها كتباً بألف درهم ، جميعها في الكيمياء ، ورمى بها في وقته في بركةٍ ، وقال : هذه كتب كانت تُضلّ الناس وتضيع أموالهم »[٢] ، قلت : فأنتَ ترى أنه لا ينقل كلام ابن تيمية في سرد الواقعة ـ وهو يعلم أن له على الرجل ردّاً ـ ويكتفي بما حُدّثه عنه .

قال أبو العباس بن تيمية عن هذا الدجال (الكيميائي) : « . . . ثم إنه مات هذا الرجل ، وكان خطيباً بجامعٍ ، فلم يشهد جنازته من جيرانه وغيرهم من المسلمين إلا أقل من عشرة ، وكان يعاني السحر والسيمياء ، وكان يشتري كتباً كثيرة من كتب العلم ، فشهِدتُ بيع كتبه لذلك ، فقام المنادي ينادي على كتب « الصَّنعة » ، وكانت كثيرة ـ يعني كتب الكيمياء ـ فإنهم يقولون : هي كتب علم الحَجَر المكرّم ، وهي علم الحكمة ، ويعرفونها بأنواع من العبارات ، وكان المتولي لذلك من أهل السيف والديوان شهوداً ، فقلت لولي الأمر : لا يحلُّ بيع هذه الكتب ؛ فإن الناس يشترونها ، فيعملون بما فيها ، فيقولون : هؤلاء زَغَليّة (أيْ أهلَ غِشّ) ، فيقطعون أيديهم ، وإذا بعتم هذه

---

(١) الغيث المسجم : الورقة ١/١١٧ والمطبوعة ١/٢٠ ، وانظر عبارة الآلوسي في « روح المعاني» ٢٠/١٢٠ ، كيف تلحظه ينكر استخدامه كلمة « وزيّف » .
(٢) الأعيان : ٣/٣٢٩ .

الكتب تكونون قد مكّنتُمُوهم من ذلك ، وأمرتُ المنادي ، فألقاها ببركة كانت هناك ، فألقيَتْ حتى أفسدها الماء ، ولم يبق يُعرف ما فيها . »[١] ، فتأمل فرق ما بين الحاكِيين .

وقد تعلم أن أكثر ما في ترجمته لشيخ الإسلام نقل وليس فيها من « ذكرياته » معه إلا قليل[٢] ، وغاية ما يحصُلُ عندك بعد قراءة ما كتبه هناك[٣] ، الاعتراف بعظيم درجة ابن تيمية في العلم وقوة الحافظة ، مما قال بمثله الخصوم ، وزيادة[٤] بل إني لأحسب ثلاثة الخصوم من فقهاء دمشق الذين تخلفوا عن جنازته[٥] ، وتخفَّوا يومئذ رعباً من الدماشقة أن يمسكوهم ، وُينزلوا بهم من شديد العقاب ما يهلكهم ، وذلك لبلوغهم الغاية في أذى أبي

---

(١) مجموع الفتاوى : ٣٧٨/٢٩ .

(٢) هناك كلمة لها دلالة ، وردت في (الوافي) وهي قوله : « . . . فيما أظن » (وقد أكثر منها من الأعيان جداً) ، فإن كان يحكي أمراً لم يشهده لصغره أين المؤرخ وتطلبه المصادر ؟ ، وإنما هي « معلومة » تأكيدها في النظر في كتب الذهبي ، وابن عبد الهادي ، هذا مؤرخ ؟!

(٣) وإن كنت أشك في مراده من نقل قصة أكله القرعة المُرّة .

(٤) انظر كلام التقي السبكي ـ مثلاً ـ في كتاب بعثه إلى الذهبي : « . . . فالمملوك (يعني نفسه) يتحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف والمملوك يقول ذلك دائماً . . . » انظر الرد الوافر : ١٠٠ .

(٥) ومن هؤلاء الثلاثة : القحفازي ، شيخ الصفدي . انظر ابن كثير : ١٤/ ١٤٤ ، ١٤٥ ، والأعيان : ٥/ ٥٩٥٠ ، والمفهوم أن الصفدي كان بالقاهرة سنة وفاة شيخ الإسلام ، ولا يظهر من عبارته أنه « تألم لفقده « لما بلغته وفاته ، كما تألم لطبيب فاسد المعتقد ، متفلسف ، ومن أهل (الكيمياء) الدجاجلة (أكبر الظن أنه من خفر المغول) اسمه : ابن الأكفاني السنجاري (ت٧٤٩هـ) الأعيان : ٣/ ٧٢٢ ، ٤/ ٢٣٠ ، وانظر : كشف الظنون : ١٥٢٨/٢ .

العباس ، أقول : حتى هؤلاء الثلاثة لا ينكرون وصفه العلمي الذي جاء به الصفدي في ترجمته شيخ الإسلام ابن تيمية .

وأحسب أن الوصف الذي ذكره ابن سيد الناس في جوابه على الدمياطي ، وأطلقتُ عليه أنا : « المكر العقاربي » مع ما مَرَّ آنفاً من عدِّي إياه حيَّة من « حيات » أبي حيان الأندلسي وهما من بعض صفات (الزواحف) التي تلزم الحذر والاستخفاء كان ملء طباعه ، فمنعاه التلفظ بمثل ما تلفظ به شيوخه من مفتريات « مباشرة » ، كالتجسيم ونحوه ، فاكتفى بالنقل عنهم ، احترازاً من سخطة أمير محبٍّ لابن تيمية[1] .

واقرأ هذا النفج والتبجّح ، والتعالم من الصفدي[2] ، في أسئلة سألها شيخ الإسلام ، هل جُبهتَ في مصدر من المصادر بشبيه له في سيرة المجترئين على أبي العباس ، من معاصريه ؟ .

---

(١) من أشهر هؤلاء الأمراء : الأمير « جنكلي » (ت ٧٤٦هـ) وقد حكى المقريزي دفاع « جنكلي » القوي ضد تهجم أمير صوفي على ابن تيمية بحضرة الناصر . وبدا أنّ الأمير : « قطلوبغا » الفخري (ت٧٤٢هـ) كان ممن يحبه ، ويكره « تنكز » ويحطّ عليه ، وإني لأدعو الله تعالى أن يغفر ذنوبه ، كفاء معروف كبير ، سعى فيه أول مدة نيابته القصيرة في دمشق ، حين كفّ متعصبة قضاة الأشعرية عن كتب ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ التي استمر حبسها عندهم سنين كثيرة ؟! . كما رحم الذين طلبوا منه ذلك ، بعد زوال رعب « تنكز » . انظر : الدرر : ٣٢١/٤ ، والمقفى الكبير : ٦٥٧/١ ، وابن كثير : ٢٠٩/١٤ ، والأعيان : ١١٣/٤ ، ويبدو أن الكوثري ما وقف على حب الأمير جنكلي لابن تيمية وتعظيمه له ، فلم يبدل واقع الرجل حين مدحه بالقول : « الأمير الكبير الورع الزاهد العالم » وعلم كره « تنكز » لابن تيمية ، فكان منه ما ينتظر منه : مدح تنكز . ذيل تذكرة الحفاظ : ١٣٩ ، ٣١٨) .

(٢) واذكر قوله عن نفسه : « ... وأنا وغيري من أئمة الأدب الذين لطف ذوقهم !! ... » الغيث المسجم : ٣٩٢/٢ .

قبل ذلك أنقل ما كان عليه طلاب العلم في مجلس ابن تيمية ، ومنهم : إبراهيم بن أحمد الزرعي الحنبلي (ت٧٤١هـ) فاضل أشعري (كان أشعري المعتقد في الغالب من أحواله!! كذا قال ابن حجر) مدحه الصفدي ، وسماه شيخه السبكي : فقيه الشام ، قال الصفدي : « ... ورأيته يحضر دروس العلامة ابن تيمية كثيراً ، ويأخذ من فوائده ما شادَ به مجداً أثيلاً أثيراً ، يجلس منصتاً لا يتكلف لبحث ، ولا يتكلم ، ويرى أنه يتعلق بأهدابه ويتعلم »[١] .

هذا فاضل أشعري راعى آداب طالب العلم ، فانظر ضدَّها عند حكاية الصفدي مجلسه عند أبي العباس ، الذي لم أر داعياً مهماً لنقل أسئلته .

توجه بسؤاله الأول لشيخ الإسلام حين زاره في حيّ « القَصَّاعين » في دمشق سنة ٧١٨هـ ، حين جاءها طالب علمٍ في الثانية والعشرين من العمر تقريباً ، (وكان أبوه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى العشرين)[٢] تأمل هنالك قوله : « .. فعَدل بي من الجواب إلى الشكر .. » ، وقوله بعد سؤاله الثاني : « ... فأجاب بما قاله المفسرون .. » ، ثم استخدامه هذا التعبير : « .. فقلتُ له : هذا فاسدٌ من وجوه!! » ثم تكراره ذلك : « وهذا أيضاً فاسد!! » ، ثم تعليقه على آخر الكلام : « .. فما رأيتُ التطويل معه!! » .

ولقد عاب العلامة الدماميني ، على الصفدي فيما عاب ، هذا الأسلوب مع شيخ الإسلام ، حينما قال : « جرى أيضاً على عادته في التبَجُّح بالأمور السهلة ، وما اقتنع بذلك حتى لوّح بتقدُّمه على الإمام تقي الدين ابن تيمية ، حيث نسبه إلى العجز ظناً منه أنّ عُدُوله عن الجواب إلى الشكر قصور منه ، وهذه المسألة ، أوضح أن تخفى على مثل هذا الإمام مع اشتهارها فيما بين

(١) الأعيان : ١/ ٤٥ ، ذيل طبقات الحنابلة : ٢/ ٤٣٤ ، والدرر : ١/ ١٦ .
(٢) الدرر : ١/ ٤٩ ، والبدر الطالع : ١/ ٢٤٣ .

القوم »[١] ، فهل يُوافَقُ الحسيني ، عندما قال عن الصفدي : « وإليه المنتهى في مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشّيَم »!! ؟[٢] .

دع ذا ، وانظر صبر أبي العباس ، وتَحَلُّمَه (من الحِلْم) تجاه كلمات الصفديّ المُعْوِرَة ، التي لو ذهبتَ تخفّف من شَيْنها وغطرسة الأسلوب فيها بالقول : إنه كان شاباً متحمّساً ، لم يمض على سماح أبيه له بطلب العلم سوى سنتين تقريباً ؟ منع من ذلك موقفه العام من ابن تيمية ، وتعليقه الأخير بقوله : « . . فما رأيتُ التطويل معه!! » .

وأشير هنا إلى أن هذه الحادثة تصلح شاهداً ، من شواهد وأدلة كثيرة ، على أن شيخ الإسلام ما كان يحتدّ غضباً لحظّ نفسه ، وانتقاماً لها ، بل كان حريصاً على نفع من أساء إليه ، وذلك واضح من قوله للصفدي : « . . . ولو لازمتني سنةً انتفعتَ » ، ثم تكراره ذلك : « لازِمْني ، لازِمْني تَنْتَفع » ، فما

---

(١) نزول الغيث : ٤٠٠ .

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبة : ٣/٢٢٨ قلت : واعجب لدفاع ابن اقْبَرس في (تحكيم عقله) عن الصفدي حين علق على كلام الدماميني هنا ، فقال : « أما قوله إنه تبجح بالأمور السهلة ، فلا نسلم ، بل هو واقع في أعظم مواقعه!! لأن نسبته إلى الإمام تقي الدين ، نسبة الطالب إلى الشيخ ، ألا ترى إلى حكايته قول الشيخ تقي الدين : « هذا ذهن جيد ، ولو لازمتني سنة لانتفعت » . ومثل هذا إنما يقع لأكابر الأشياخ مع أصاغر الطلبة ، فحق الصفدي أن يتبجح بشكر مثل هذا الإمام بجودة الذهن وحسن السؤال ، لاسيما كونه لم يستحضر جواب السؤال في ذلك الوقت ، فإن ذلك يكون ادعاء في تبجح الطالب لا من جهة ظن العجز إذ لا يلزم من عدم استحضار الجواب في ذلك الوقت العجز وهذا ظاهر لا يخفى ، فكيف يقال : إن الصفدي ظن به العجز؟ غايته أنه افتخر بأنه يسأله سؤالاً حسناً لم يستحضر جوابه في الحال ، ثم ساق حكايته عنه منزله منزلة أصاغر الطلبة له ، فكيف يظن به العجز؟ » . فهل رأيتم تحكيم عقل ابن أقبرس؟ انظر : الورقة ٥٦ . .

كان ـ رحمه الله تعالى ـ ليقول له ذلك لولا أنّ حضور لصفدي مجلسَه ، في المرات التي ذكرها إنما كان حضور الزائرين ، لا الملازمين ، ألا ترى ـ وهو معاصر لأبي العباس ـ أنه قد أكثر حين ترجم له من قوله : « وحكي لي عنه » ؟[١] .

لا شك أن « التعصّب المذهبي » الذي لُقّنه من أشياخه الذين كانوا لا يرون الحقّ والعقل إلا ما جاء به أبو الحسن الأشعري(ت٣٢٤هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ في مرحلته الفكرية الثانية[٢] ، وصوفية ما بعد القرن الخامس الهجري ، كان سداداً محكماً على عقل الصفدي الشاب الغرير ثم استحكمت عليه أهواؤه ، فعاد في دركةٍ تقرب من دركة صاحبه عبد الوهاب السبكي الذي كتب متحدثاً عن رفقة الأئمة الثلاثة : المزي والبرزالي والذهبي لأبي العباس فقال : « وأضرَّ بهم أبو العباس بن تيمية إضراراً بيّناً ، وحملهم من عظائم الأمور أمراً ليس هيناً ، وجرّهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم . . . »[٣] .

وما يبعد أن يكون قد حُذّر في شبابه من عاقبة كعاقبة صديقه التركي « ألطنبغا » (ت٧٤٤هـ) الذي حكى أمره في (الأعيان) ، فقال : « ولما توجه معي إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية ، سال ذهنه إليه ، وأقبل بجملته عليه ، ومال إلى قوله ، ودار من حوله ، ثمّ بعد فراقه (تأمّل) تراجع عنه إلا بقايا ،

---

(١) ذكر الصفدي انتفاعه من مجالسه ؛ وطبعي أن ينتفع من حضر مجلس « البحر » ، لكن لم يُقدّر له النفع الذي كان يريده ابن تيمية .

(٢) كان الأشعري معتزلياً ، ثم تمرد عليهم ، فكانت له آراء ، ثم هداه الله تعالى إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، مذهب الأئمة الأربعة ، والمحزن أن يتشبث المنتسبون إليه بمرحلة تركها صاحبها . انظر رسالة : أبو الحسن الأشعري وعقيدته ، للشيخ حماد الأنصاري ص٥ـ٨ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠/ ٤٠٠ .

وادَّكر غدوات قربه والعشايا » . فأنت ترى كيف سمي انتكاسة صديقه تراجعاً ، وهي من حاقٍّ الخذلان وكان قد وصف عقيدته بأنها : « للأشعري منسوبة ، وفي عداد أصحابه منسوبة » ، فلا يُعلم أعرف « الثَّورُ الذهبي » ـ ترجمة اسمه من التركية إلى العربية ـ أن تراجعه ذلك قد سهّل انخداعه بأهل الكيمياء الذين « أنفق فيها مالاً ودهراً ، وخرج من الدنيا ـ رحمه الله ـ وهو يرى كفّه صفراً » ؟[1] .

قلت : وإنَّ من أفاعيه لقوله « إلا بقايا » يصف آثار ملازمة « ألطنبغا » لمجالس علم ابن تيمية .

* * *

---

(١) الأعيان : ١/ ٦١٢ .

شيخ الإسلام ابن تيمية
يَصِف معاناة الصفدي « النفسية »!!

إنه لا مصدر أوثق من الصفدي في إثبات هذه « المعلومة » التحليلية عن نفسه ، والتي أحسب أن عدَّها في قلَّة إدراك الأمور عند صاحب « الوافي » مثالاً جيِّداً ، وهي على كل حال اعتراف مريض بردّه « جَلَسَات العلاج »!!

فقد أهدى « خليل » إلى « قُرّائه » وصف معاناته النفسية في المعتقد ، من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أحد كبار أطباء القلوب ، الذي بلغت فراسته مبلغاً عجباً ، حتى إن ابن قيم الجوزية نقل عنه أنه قال : « يدخل علي أصحابي وغيرهم ، فأرى في وجوههم ، وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم » ، فقال ابن القيم ، أو غيره (الشك من ابن القيم) .

ـ : « لو أخبرتهم ؟ » ،

ـ فقال شيخ الإسلام : « أتريدون أن أكون معرفاً كمعرّف الولاة ؟ »[1] .

وذكر ابن القيم من بعض فراساته « العُمَرِيّة » مالا تحتمله عقول بعض المعاصرين ، ومن لم يفهم مقصود شيخ الإسلام ، والإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمهما الله تعالى[2] .

لقد سَبَرَ أبو العباس ابن تيمية ، مداخل فِكر الصفدي ومخارجه ، وعرف

---

(١) مدارج السالكين : ٢/ ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(٢) من أولئك الشيخ حامد الفقي ـ سامحه الله تعالى ـ فقد علق تعليقاً عجولاً لا يخفى على طالب علم صغير .

ما لُقّنه من شُبهات مَشْيخةٍ له ، اتخذت آراء أهل الكلام ديناً ، وأحلام الصوفية آيَة صْدِقها ، فكان يسأله سؤال طبيب (نفسي) خبر علة مريضه : « أيْشٍ حسّ الإيرادات ؟ أيشٍ حسّ الأجوبة ؟ أيشٍ حسّ الشكوك ؟ » .

وقال (يريد موعظته) : « أنا أعلم أنك مثل القِدْرِ التي تغلي ، تقول : بَقْ بَقْ بَقْ ، أعلاها أسفلها ، وأسفلها أعلاها !! »[1] .

وعلام الغيوب ـ عزّ وجلّ ـ يعلم ما كانت نيّة الصفدي عند نقله لهذا الجزء من كلام ابن تيمية بلهجته اليومية هذه ، ولكن لما كان من غير محبيه ، فلا يُظنّ بتلك النية خيراً ، والنافع في نقله هذا ـ كما ترى ـ أنه أفادنا « تشخيص » إمام مثل أبي العباس ، للحال النفسية للصفدي ، التي يمكن وصفها اليوم بأنها : عَصْف نفسي شديد في جوانحه وعقله ، سببها شبهات الأشاعرة ، وإذْ لم ينتصح بشيخ الإسلام ، في حياته ، واستهان بكتبه بعد موته ، وسطّر في كبرته بعض ما تقرأ ، فلا يُظن مع ذلك ـ والله أعلم ـ أنه عوفي من رِيَبِهِ الكلامية والتصوفية .

* * *

(١) الوافي : ٧ / ٢٠ـ ٢٢ .

رواية أحد خصوم شيخ الإسلام

نقل الصفدي في غيثه قال : « حكى بعض الأفاضل أن الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ كان كثير الحط على الشيخ محيي الدين بن العربي فقيل له يوماً :

ـ إن هنا إنساناً يُخَرّجُ جميع ما تُنكره على ابن عربي ، ويردّه بالتأويل إلى ما يوافق ظاهر الشريعة ، فطلبه ، فلم يحضر إليه ، فلما كان بعد مدة اتّفَق اجتماعهما في مكان واحد ، فقيل له : هذا الذي وصفناه لك ، فقال له :

ما الذي تفهم من قول ابن العربي : « دخلت لُجّة بحرٍ ، الأنبياء وُقوف بساحله » ؟ .

فقال له : صدق ! لأن الأنبياء يقفون على الساحل بصَدَدِ من يغرق فينقذونه من الغرق ! !

فقال : هذا بعيد في الاحتمال .

فقال : أليس أنه يحتمل ما قلت خلافاً لغرضك ، وحظّ نفسك ؟ فلم يجبه؟ انتهى »[(١)] .

قلت : إنْ صدق الذي حدّثهُ في روايته هذه ، فإنَّ إعراض شيخ الإسلام عن جوابِ المذكور جوابٌ ، على رأي من قال :

إذا نَطَــقَ السَّفيــهُ فــلا تُجِبْــهُ فخيــرٌ مِــنْ إجــابتــهِ السُّكــوتُ

(الشافعي)

---

(١) الغيث المسجم : الورقة٢١ ، والمطبوع ١/ ١٢٦ .

وقيل :

جـواب سـوء المنطـق السكـوتُ قـد أفلـح المتّئـد الصمـوتُ

(ابن دريد الأزدي)

وقيل :

مـا سكتنـا عنـك عِيًّـا ربّ نُطْـقٍ فـي السكـوتِ

(ابن رشيق القيرواني)

* * *

تخيّره فجّ الألفاظ

استخدمَ الصفدي ألفاظاً ، يُرجح الدارس فساد نيّته في اختيارها ، مثل قوله ، وهو يترجم لأحد خصوم أبي العباس : « . . . وكان ممن يعبث بالشيخ تقي الدين ابن تيمية ويؤذيه بلسانه. . . » ، وقوله في ترجمة الوجودي القادم من الأناضول ، تلميذِ الصدرِ القونوي (ت ٦٧٣هـ) : كريمُ الدين الأيكي (ت٧١٠هـ)[١] هذا الذي أخبر الذهبي بأن الصوفية أثبتوا فسقه من ستة عشر وجهاً[٢] : « . . . وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية كثير الحطّ عليه ، غزير النطّ ـ على رأي العوام ـ إليه »[٣] ، وليس في بقية كلام الصفدي ما يشعر بتصويبه حطّ ابن تيميةَ عليه ، أو بيان أن ذلك منه كان للتحذير من ضِلّته ، فهي

---

(١) هذا غير شمس الدين ، محمد بن أبي بكر الأيكي ، المتوفى سنة ٦٩٧هـ ، انظر الأعيان : ٤/ ٢٣٥ ، ٣٥١ (ذكره الأفلاكي في مناقب العارفين : ١/ ٣٦٠) ويُذكر هنا أن الصفدي قد لبس خرقة التصوف سنة ٧٣٨هـ ، من يد مجد الدين الأقصرائي (ت٧٤٠هـ) الذي صلى على شيخ المولوية « سلطان ولد » ابن جلال الدين الرومي ، بوصية منه وذلك في قونية سنة ٧١٢هـ . وقد روى الأفلاكي خبراً عن الأقصرائي عن سلطان ولد في « مناقب العارفين » : ٢/ ٤٣٧ ، وانظر : الأعيان ٥/ ٤٧٣ ، والدرر : ١/ ١٧٥ . (رأي الذهبي في لبس الخرقة المدون في كتبه : الحكم ببطلان سندها . انظر السير : ١٦/ ٢٦٦ ، أما ذكره للبسها بقوله : « ألبسني خرق التصوف شيخنا عيسى بن يحيى. . . » فيُحمل على حرصه وهو طالب علم بمصر على التحمل والسماع ، كما أنني أرى في جملته وجمعه « الخرقة » في « خرق » سخرية الحافظ من الخرافات !) .

(٢) ذيل تاريخ الإسلام : ١٢٢ ، والدرر : ٢/ ٢٤١ .

(٣) الأعيان : ٢/ ٦٩٣ ـ ٣/ ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ١٣٣ .

مقولة بغرض السَخَر والاستهزاء ، وخلة السوء هذه ، عرفها الإمام الدماميني من خُلُق الصفدي في بعض كتبه ، فقال : « . . . وإنه لأجدرُ بالطَنْز عليه ، فإنه أورد كلاماً ساقطاً . . . »[١] .

مع أن شيخه أبا حيان الأندلسي[٢] حَدّثَ جعفراً الأُدفويّ (ت ٧٤٨هـ) صاحب كتاب « الطالع السعيد » بما شهده من أمر الأيكي هذا ، قال : كان الشيخ كريم الدين ـ شيخ الخانقاه ـ عند قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، وخرج من عنده ، وقال : هذا الكريمُ مجنونٌ ، كان الساعة يبحث ، ويقرّر أنه يكون الشخص في مكان وبَدَنُه في مكانٍ آخر ، ذا مجنونٌ ! ![٣] .

وحكى الصفدي نفسه قصة دخول الأيكي يوماً آخر على ابن دقيق العيد ، وأنه تكلم زماناً طويلاً ، والشيخ ساكتٌ ، فلما خرج من عنده قال للحاضرين : « هل فيكم من فهم عنه تراكيب كلامه ؟ لأني ما فهمتُ غير مفرداته ! ! »[٤] ، فها قد ترى أن كبير علماء الشافعية ، كان ينصر شيخُ

(١) نزول الغيث : ٣٠٦ .

(٢) قال في ترجمة شيخه هذا : « . . . ماكنت أنقم عليه إلا ما كان يبلغني عنه من الحطّ على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، على أنني ما سمعت في حقه شيئاً . . » ، فأنت ترى أنه لا ينقم عليه انحرافه عن شيخ الإسلام بعد ما امتدحه ، ولا ينقل عنه ما يشبه الرجوع من انحرافه ذلك عندما رضي أبو حيان أن يسمع مرثية قالها : محمد بن عبد العزيز المارديني (كان حياً سنة ٧٢٨هـ) وهو من خواص أصحاب شيخ الإسلام ، فسمعها ، قال الحافظ ابن ناصر الدين : « وأقره عليها » ، الأعيان : ٥/ ٣٣٣ ، وترجمة ابن تيمية ، لابن عبد الهادي ، الورقة : ١٥١ ، ١٥٢ ، والرد الوافر : ١٢١ ، ١٢٢ ، والدرر : ٤/ ١١ .

(٣) الطالع السعيد : ١٣٣ ، وقد عدّ شيخُ الصفدي أبو حيان الأندلسي ، الأيكي من القائلين بالوجودية ، ووصف مذهبهم بالمذهب الملعون . انظر الشهادة الزكية : ٩٧ .

(٤) الوافي : ١٩/ ٥٣ (ط. دار إحياء التراث)، والغيث المسجم : الورقة ١/ ١٩٧ ١/ ١٧٣ ، قلت : هذا النص يُهدى لمن يقول إن القوم ما فهمهم منتقدوهم ، فهذا ابن=

الإسلام ، في الحطّ على « معتقد » الأيكيّ .

و إن من جهل خليل الصفدي بفرقان مابين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، تعظيمه صاحب « الفصوص » ابن عربي حين قال عن فتوحاته (الهلكية)[1] : « . . . ومن وقف على هذا الكتاب علم قدره ، وهو من أجل مصنفاته» و قال : « . . . وناهيك به من كتاب » ، ودفاعه عمن كان على طريقه ، وردّه على استنكار ابن دقيق العيد ـ آنفاً ـ بالقول : « وهؤلاء القوم يُسلّم إليهم حالهم ، فإنهم قد جاء منهم علماء كبار !! مثل الشيخ محيي الدين بن عربي !! وقطب الدين بن سبعين !! وفي كلامهم من هذا النوع كثير !! »[2] .

ومعلوم أن الصفدي لم يكن في رأيه المنكَرِ هذا جُحَيْشَ وَحدِه ، بل هو رأي كثير من شيوخه ، الذين يعظمون ابن عربي لَقَّنُوه إياه فَلقِنه ، وغير بعيد أنهم قالوه لشيخ الإسلام ابن تيمية ، غير مرة ، حتى حكاه في (درء التعارض) فقال : « ومَن لا يوافقهم ، أكثرهم يُسلّمون لهم أقوالهم ، أو يقولون : نحن

= دقيق العيد ـ رحمه الله تعالى ـ وهو من هو عندكم قال ما قال عن كلام ذلك الوجودي ، والحق إن هذا الإغماض متعمد لا لصعوبة فهم مذهبهم ، بل لإضفاء الهيبة له في قلوب معظميهم . وانظر تعليق ابن كثير (١٤/ ٥٣) بعد ذكر جهل الأيكي ، وقلة ورعه وافترائه على أبي العباس وكذبه عليه ، وهو يتحدث عن عزله عن مشيخة خانقاه في القاهرة : « . . . فعجل الله له الخزي على يدي أصحابه وأصدقائه جزاء وفاقاً » .

(١) سماها بذلك الإمام سراج الدين البلقيني (ت ٨٠٥هـ) . انظر الكتاب الجامع لفضح ابن عربي ، الذي جمع الإمام السخاوي فيه شهادات علماء الأمة في المتصوف الوجودي وسماه (القول المنبي عن ترجمة ابن عربي) : الورقة ٨٣ ، وفيه تعليق على زعم الصفدي أن عقيدة ابن عربي ، عقيدة الأشعري ، وختمه بقوله : « . . . فأين عقيدة الأشعري ؟! نسأل الله السلامة » . الورقة ٦٤ـ٦٦ .

(٢) الغيث المسجم : ١/ ٢٤٧ ، ١٧٣ ، والوافي : ٤/ ١٢٥ .

لا نفهم هذا ، أو يقولون : هذا ظاهره كفر ، لكن قد تكون له أسرار ، وحقائق يعرفها أصحابها »[١] .

وانظر تعليقه على ترجمة الصفيّ الهنديّ (ت ٧١٥هـ)[٢] الذي غُرّر به ، ودُفع إلى مناظرة أبي العباس ، فكان ـ بحقّ ـ كما وصفه الإمام ابن كثير بأن : « ساقِيَته لاطمتْ بحراً »[٣] ، عندما قال الصفي الهندي لأمرٍ يتعلق بالتاريخ : « لا نُسَلّم » كيف حَصَر الصفدي غَلبَة شيخ الإسلام على الهندي في غلطته هذه ، فقال : « وكان ذلك سبب نصرة ابن تيمية !! » ، وكأنه لولا خطؤه ذاك كان منتصراً عليه ، في أمرٍ كانت العقيدة السلفية محور نقاشها ، وأنت على خبر بقوة حجج شيخ الإسلام فيها ، ثم لا يكتفي بذلك حتى يدخله في غير المنصفين ، حين قال : « . . . وما أُنصف صفي الدين الهندي في قوله ، لعله كان عنده سبب آخر لتسمية المعتزلة غير ذلك ، إذ هو ممكن »[٤] .

أوَ مِنَ الإنصاف ـ إذ جئتَ على ذكر الإنصاف ـ قولك في أبي العباس : « . . . قد تحلَّى بالمحلَّى ، وتولّى مِن تقليده ما تولّى ، فلو شاء أورده عن ظهر قلب !! وأتى بجملة ما فيه من الشناع والثلب!! »[٥] ، وإنَّ أكثر مادّته من كلام ابن حزم ، فمن مادتك أنت ، ويلك ؟ .

أوَ عرف الإنصاف لشيخ الإسلام ابن تيمية مَن سمى التحذير مِن

---

(١) درء تعارض النقل والعقل : ٦/ ١٧١ .

(٢) استخدم الهندي صفي الدين ، في جدال له مع شيخ الإسلام كلمة العوام « نَطَّ » فقال : « أنت مثل العصفور تَنُطُّ من هنا إلى هنا » الأعيان : ٤/ ٥٠٤ ، وكانت له إساءة أدب في المناظرة ، لم يذكرها الصفدي ، وإن كان له جهاد يُشكر عليه في قونية ضدَّ الجلال الرومي وحزبه . انظر « أخبار جلال الدين الرومي » : ٢٦٣ .

(٣) ابن كثير : ١٤/ ٣٩ .

(٤) الأعيان : ٤/ ٥٠٤ .

(٥) الأعيان : ١/ ٢٣٥ .

« كفريات » ابن عربي الذي جعل « المَوْجُود » و« الوُجُود » ذاتاً واحدة ، وأولـئك الذين فَقَصَ بَيـضُ زيغـهم في حاضِنَة فِكْره ، مِنْ أفراخه الوجودية ـ وضُمّ إليهم الحلولية ـ في الأناضول والشام ومصر وغيرها ، ومَن بيَّن سقطات أئمة أهل الكلام ، نصيحة للمسلمين سبّاً وشتماً ؟!

وإنما احمرَّ آنُفُ متعصّبة دهره لأنه قال في الغزالي(ت٥٠٥هـ) : « قِلاووز الفلاسفة » أي دليلهم ورائدهم ، وهو ما وافق عليه العلماء ، وهل يعي أسباب ذلك من شهد التاجُ السبكي بأنه ربما شارك في فهم كتاب من كتبه ؟![1] .

وما له لا يذكر شناعة للفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، نقلتها المصادر ، وهي أنه كان قد قال في بعض كلامه : « قال محمد التازي (والتازي بالفارسية : العربي) وقال محمد الرازي. . . » ، وعنى بالتازي سيد المرسلين محمد ﷺ ، وقد تناقل خصوم الرازي سَوْءته هذه ، حتى كتبها أتباع جلال الدين الرومي(ت٦٧٢هـ) عن عشيقه و« مُرْشِده » : شمس الدين التبريزي (ت٦٤٥هـ) في « مقالاته »[2] .

---

(١) لعله ما درى حين نقل تغيير شيخ الإسلام عند إلقائه درسه نطق أسماء بعض المنحرفين والمبتدعين والملحدين ، مثل النجم الكاتبي ، (ت٦٧٥هـ) بما يناسب حال المغَيَّر له ذلك ، مما هو حلّ طلق ، كما حول نُطق لقب الكاتبي المذكور من دَبِيران إلى : دُبَيْران ، أقول : لعله ما علم أن تلميذ النصير الطوسي (ت٦٧٢هـ) هذا ، مات وهو يقول بقدم العالم ، وإلا أيبلغ به الجهل أن يمدح كتبه في المنطق بالقول إنها تواليف بديعة ! . انظر : تاريخ الإسلام : ص ٢٠٧ ، ولقد قرأت في كتاب « التحقيق في الفقه » لعبد الوهاب بن زهرة الطرابلسي الشافعي(ت٨٩٥هـ) قوله : « كتاب الجهاد ، هو فرض كفاية على المذهب في كل سنة مرة ، كزيارة الكعبة ، وكذا إقامة الحجج العلمية في دفع الملاحدة الفلاسفة » الورقة ٥٧ ، فانظر أيّ شيء كان هذا المخلوق الصفدي ؟ .

(٢) الذيل على الروضتين : ٦٨ ، وتاريخ الإسلام : وفيات ٦٠٦هـ ، وتاريخ ابن كثير : =

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن رجلاً من أهل الفضل والذكاء والمعرفة والدين(يحتمل أن يكون تلميذه ابن القيم) ، قرأ على شخص من أكابر أهل الكلام والنظر (أحسبه الصفي الهندي) دروساً من كتاب « محصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين » ، وأنه شكا تغير حاله ، فنصح بترك كتب الكلام والفلسفة ، وأنّ الرجل المذكور كتب على نسخة « المحصّل » هذين البيتين :

مُحصَّلٌ في أصول الدين حاصلُه ... مِن بعدِ تحصيله أصلٌ بلا دينِ
أصلُ الضلالاتِ والشكّ المبين وما ... فيه فأكثرُه وحي الشياطينِ[1]

فكان أن رأى الصفدي البيتين ـ بعدُ ـ وقال : « رأيتُ بعضهم(؟!) قد كتب على كتاب « المحصّل » ، وذكر البيتان ، وأنه كتب في ردّها قائلاً :

عَميتَ عن فَهْمِ ما ضَمّتْ مسائلُه ... ونورها قد تجلَّى بالبراهينِ
فمِلْتَ عجزاً إلى التقليدِ وهو متى ... حقَّقتَ لم تلقَ أمراً غير مظنونِ
والناس أعداء مالم يعرفوه فلا ... بِدْع إذا قلتَ ذا وحيُ الشياطينِ

وكتب على « المحصّل » للرازي :

علمُ الأصولِ بفخر الدين منتصرٌ ... به نَصولُ بإعجابٍ وإعجازِ
أضحتْ به السُّنة الغراء واضحةً ... قد استقامت لمختارٍ ومجتازِ
له مباحثُ كم قد أحرقتْ شُبَهاً ... بشُهْبِها فمن الزّاري على الرّازي؟[2]

= ١٣/ ٦١ ، و« مقالات » شمس الدين التبريزي : ٢/ ١٤٣ ، ١٤٤ .

(١) منهاج السنة : ٥/ ٤٣٣ ، أما ما ورد في رواية شذرات الذهب : ٨/ ٢٣٣ ، من كونها مما أنشده شيخ الإسلام لنفسة ، فتحمل على ظنّ الراوي ذلك ، حين ذكرهما مستشهدا ، ومعجباً .

(٢) الوافي : ٤/ ١٨٠ ، وجنان الجناس : ٥٦ .

وقال في ترجمة شيخه المحبوب ـ عنده ـ صدر الدين بن الوكيل[١] خصم أبي العباس : « وباشر بدمشق مدارسها الكبار . . . ، والخطابةَ بالجامع الأموي ، ولكنه لم يُصلّ في المحراب إلا يومين ، حتى قام الشيخُ تقي الدين بن تيمية ، وغيره من المتعصبين عليه حتى عُزل . . . . »[٢] والذي يُفهم من تعبيره أن شيخ الإسلام ظاهَرَ الذين ظلموا ابن الوكيل ، إن لم تلتفتْ إلى وصفه بـ« المتعصبين » الذي هو أحق به وأجدر .

وكذلك تصوُّرُه ، وتصويره قوة حِجَاج شيخه في المناظرة ، وأن ضعفاً انتابَ شيخ الإسلام في مناظرة جرت بينهما يوماً في مدرسة الكلاسة في دمشق ، قال : « . . . فاضطر الكلامُ الشيخَ تقي الدين إلى أحد الحاضرين ، وقال له : هذا الذي أقوله ما هو الصواب ؟ . . »[٣] ثم أورد بيتاً من الشعر فيه تصوّر التلميذ وأستاذه الخاطىء[٤] .

* * *

(١) وقال ابن تيمية عنه فيما نقله الصفدي : « ما كان يرضى لنفسه بأن يكون في شيء إلا غاية » ثم يعدد أنواعاً من الخير والشر ، في كذا كان غاية ، وفي كذا كان غاية » . الوافي : ٤/ ١٩٤ .

(٢) الأعيان : ٥/ ١١ .

(٣) الوافي : ٤/ ١٨٦(ط . دار إحياء التراث) .

(٤) هذا توهم من ابن الوكيل ومتابعة من الصفدي له ، وأحسب أن شيخ الإسلام ـ والله أعلم ـ حانت منه التفاتة عفوية ، ربما كانت منه كالتي سجلها في كلامه على المناظرة مع الرفاعية ، حين طلب إلى كمال الدين بن الزملكاني (ت٧٢٧هـ) أن يتكلم لأن المناسبة قضت ذلك ، فلم يستنصره يومئذ ولم يكن فيها مما اضطره الكلام عليه ، وإنما طلب إليه توثيق معلومة عند الشافعية .

وساخر مستهزيء...

علّق على خطأ رجل ـ لم يُسمّه ـ في آيةٍ ظَنَّها من آيات الصفات الإلهية ، فقال : « . . . ولم أطل الكلام هنا إلا لأن لفظ (اليد) يقع في القرآن والحديث كثيراً ، وفي هذا ما يزيل الشكوك !! وكتاب (تأسيس التقديس) للإمام فخر الدين في هذا الباب نافع للغاية[١] ، ولقد رأيت بعضهم (؟) بالغ في إثبات (اليد) واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فسقطتُ من كلامه مُقَهْقِهاً ، وتَقَهْقَرتُ مُتَدَهْدِهاً ، وقلتُ له : الأيد هنا القوة كالآد ، والتأييد ، ومنه المؤيد. . . »[٢] .

فكان من تعليق العلامة الدماميني على هذه السخرية الصفدية قوله : « لقد بالغ في التشنيع على خصمه ، وإنه لأجدر بالطَّنز عليه ، فإنه أورد كلاماً ساقطاً. . . » ، ثم ذكر خطأه من جهة العربية ، وقال : « ولو قصر هذا الرجل عن الدخول فيما لا يعنيه ، لسلم من هذه المهالك ، التي توقعه فيها مطالبه العجيبة »[٣] .

---

(١) قد قال ابن قيم الجوزية فيه :

وكذلك « التأسيس » أصبح نقضه		أعجوبة للعالم الرباني

ومن العجائب أنه بسلاحهم		أرداهم تحت الحضيض الداني

(٢) الغيث المسجم : الورقة ١/٢٥٣ ومن المطبوعة ١/٢١٩ ، ٢٢٠ ، وانظر ما نقله شيخ الإسلام في « نقض التأسيس» ٢/٢٣ ، عن أبي الحسن الأشعري في هذه الآية التي لم يعدها السلف من آيات الصفات . وقد أظهر ابن أقبرس سوء معتقده في نقدٍ له على نقد الدماميني في هذا الموضع . انظر (تحكيم العقول) الورقة ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) نزول الغيث : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

أضغاث أحلامه !!

طبعيٌ أن تكون أحلام المرء تتناسب مع عقيدته ، وما يشغل فكره ، والذي حلم به الصفدي يوماً (وربما تحلّمه) ، وأخبر به من هذا الباب ، بل هو امتداد لرِيَبِـه الكلامية ، التي أراد شيخ الإسلام أن يغسلها عنه ، لما دعاه إلى المداومة على حضور درسه .

زعم الصفدي أنه رأى شيخ الإسلام بعد وفاته سنة ٧٢٨هـ وقال : « ورأيته ـ رحمه الله تعالى ـ في المنام كأنه في جامع بني أمية ، وأنا في يدي صورة عقيدة ابن حزم الظاهري التي ذكرها في أول « المحلى »[١] وقد كتبتها بخطي وكتبت في آخرها :

وهــذا نَـصّ دينـي واعتقـادي وغيـري مـا يَـرى هــذا يجــوز

وقد أوقفته على ذلك ، فتأملها ورآها ، ولم يتكلم بشيء !! »[٢] . قلتُ : لعله من زائد الشَّرْح ونَفَلْه ، القول : إن ذلك من إلقاء الشيطان الرجيم في ذهن الصفدي ، إذ أراه صورة أبي العباس ، في حال من الرضا[٣] بعد تأمل عقيدة ابن حزمٍ ، وهي ـ مع بالغ الأسف ـ متجهمة في باب أسماء الله تعالى وصفاته .

---

(١) في مقدمة كتاب ابن حزم هذه أمور من بدع المتكلمين ، وتزيداتهم لا تصح عند سلفي .

(٢) الأعيان : ١/ ٢٣٩ .

(٣) جعل سكوته رمز رضاه عن عقيدة التعطيل ، وأومأ إلى صحتها (في الوافي بالوفيات) بقوله : « هم الآن قد رأوا عين اليقين ، فيما كانوا فيه يختلفون » .

وهذا (الحلم) يؤكد القول : إن الصفدي ليس لابن تيمية بصاحب ، وإنه حلم مبغض ، وأدعو الفضلاء الذين كتبوا في سيرة شيخ الإسلام أن يلحظوا الاتفاق بين أحلام الصفدي ، واليافعي ، وابن السراج الدمشقي[١] .

ومن أحلامه ذات الدلالة ما حكاه من أنه رأى شيخه الإمام ابن سيد الناس في النوم يؤنّبه على بعض الكلمات التي استخدمها في ترجمته وأنه قال له : « ما كنت تحتاج إلى تينك اللفظين » ، فسارع حين استيقظ إلى كشطها ، واعتذر بعذر لا يُدرى أهو سبق لسان أم اعتراف حين قال : « . . . لأنهما لم يكونا من كلامي في حقّه » ؟!![٢] .

ورحم الله تعالى الصادقين من أمثال ابن قيم الجوزية الذي رأى شيخ الإسلام ابن تيمية في (رؤيا) ، يُخبره فيها أنه في مرتبة الإمام ابن خُزيمة[٣] .

* * *

---

(١) انظر مرآة الجنان : ٣/ ٣٣٦ ، ٤/ ٢٧٨ ، وتشويق الأرواح : الورقة ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) الوافي : ١/ ٢٣٠ وقد مرَّ بك حديث (المشرف) على تأليف تاريخه .

(٣) الدرر : ٣/ ٢٤٥ ، قلت : ويظهر أن ابن القيم حدّث ابن المحبّ (ت ٧٨٨هـ) بالرؤيا ، فكان سؤال ابن المحب للمزيّ : « ابن القيم في درجة ابن خزيمة ؟ » فقال المزي : « هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه . . » انظر الشهادة الزكية : ص ٣٣ .

ألا يُرَدُّ على الصفديّ بهتانه ؟

وقد حان منك سؤال تُوردُه بعد قراءتك ما سبق ، فتقول مثلاً : أكان الصفدي ممتَّعاً بعقله إذ كتب هذا الهذيان ؟[١] وبخاصة طعنه في أعظم كتب شيخ الإسلام ، وأنفعها ، وطعنه في عقل مؤلفها ، وشخصيته العلمية ، وجهاده الذي يصفه بضياع الزمان ، وطعون من خلل ذلك متفرعة !!

فإن قلت : نعم ؛ لعلك تسأل أخرى : أما كان جديراً بكلمة الإمام العِزِّ الكناني (ت٨٧٦هـ)[٢] الذي وصف « واقع » التاج السبكي بقوله : « هو رجلٌ قليل الأدب ، عديم الإنصاف ، جاهل بأهل السنة ورتبهم ، يدلُّك على ذلك كلامه » ؟[٣] .

هلا رجلٌ قالها للصفدي أيضاً ، أو زَبَره قائلاً : ابنَ أيبك !! اِربَعْ على ظَلْعِك ، أما بقية حياء تردعك ؟ ورحم الله الإمام الدماميني الذي عرف من أسلوبك في الكتابة فقرك إلى الحياء حين قال فيك : « لو استحى هذا الرجل

---

(١) أعني بتمتعه بعقله ما عناه ابن حجة الحموي بقوله في أمر غير هذا : « ما أظن الشيخ صلاح الدين لما سمع قول الشيخ جمال الدين(ابن نباتة) . . . . كان في حيّز الاعتدال !! . . . » خزانة الأدب : ١/ ٣٥٧ ، ٣/ ٣١٥ .

(٢) مؤرخ وفقيه ، كان ممن تعقب السبكي وردّ عليه . قال السخاوي عنه : « وكان شيخنا (يعني ابن حجر) يبجّله جداً ، وربما ذكره في بعض تراجمه ونوّه به الولي العراقي » حتى قال : « ودخل الشام مرتين لقي في الأولى حافظها ابن ناصر الدين ، وزاد في إكرامه » انظر الضوء اللامع : ١/ ٢٠٦ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ : ١٠١ .

ما سطَّر بقلمه في الكتب هذه الفضائح . . . »[١] .

ألا إنّ النقصَ واضحٌ في عقل من امتدح كتاب خرافيّ فيه انحراف ، كشيخ الرّبوة (ت٧٢٧هـ) المسمى : (السياسة في علم الفراسة) فقال فيه : « فجاء حسناً إلى الغاية »[٢] ، ومن يرى « الاحتمال العقلي » قائماً في صدق رتَن الهندي (ت ٦٣٢هـ) إذ ادَّعى « الصُّحبة »[٣] ، وأنّ عُمره حين مات كان قريباً من ٦٥٠ سنة[٤] ، ألا وإن سقم التفكير لجليٌّ في ناظـمٍ ، يترك معاني الشعـر الفاضلة ، ثم يصف المردان والغلمان ، يتداولها الشاذون في كل العصور ويملأ الأوراق بكل رذل من المعانـي ، كـم ضيّع هذا من الأزمان ؟ ؟ للحمقُ به أولى ، ولسقوطه في المهالك أليق .

وهاهنا موضع التذكير بمقولة البرهان لله جماعة مرة أخرى ، أنقلها لأنها من خالص وصفه ، قال : « . . . وما أقبح بالرجل أن يتعاطى ما لا علم له به ، يريد أن يعلو فيهبط ! ! »[٥] .

---

(١) نزول الغيث : ٤٣٧ .

(٢) لأنه بزعمه قد جمع بين كلام الشافعي ، وابن عربي ، وأفلاطون ، وأرسطو !! . قلت : كلا ، ما أحسن إلى الغاية ، كان على شيخ الربوة أن يأخذ من كلامك ، فيطرز كتابه به !! انظر : الأعيان : ٤٧٨/٤ ، والشعور بالعور(اسم كتاب له!!) ص٢١١ .

(٣) انظر كتابي : الصوفية القلندرية : ١٧٢ ، فقد رجَّحتُ فيه أن رتناً من زمرهم .

(٤) لسان الميزان : ٢/ ٥٢٥ ، والإصابة : ٢/ ٥٣٨ . قلت : وهذا شاهد آخر لخلل في الفهم عند الصفدي ، فهو لم يفهم كلام الذهبي ، كما لم يع كلام ابن تيمية ، قال ابن حجر العسقلاني ، وقد جاء بمجمل كلام الصفدي في رتن الهندي : « . . . وليس النزاع فيه ، وإنما النزاع في تجويز ذلك من قِبل الشرع بعد ثبوت حديث (المئة) في الصحيحين . . . » انظر : الإصابة : ٢/ ٥٣٨ .

(٥) الجواهر والدرر : ١/ ٣٨٤ .

وَيْلُمِّكَ كاتب « تنكز »!! « منهاُج السنة النبويـــة » !! ، و« درء تعارض العقـــل والنقـــل » ، و« الجواب الصحيـــح لمن بدَّل دين المسيح » ، وأكثر ما نقلتَه[1] أنت مـــن مؤلفات أبي العباس كانت في تقديـــرك تضييعـــاً للزمـــان ؟ ؟ إنها لكلمة يلحقك عارها ما عرف الناس كتبك ، الحيلةُ فيها حيلةُ أعداء المصلحين ، الذين يريدون صرف المصْلح عما هو بسبيل إصلاحه ، بأن يوجّهَ إلى أمرٍ فيه نفعٌ فـــي الُجملة ولكنـــه مستَغْرق وقتَه ، فـــلا يَفرغ لـما عزم عليه .

ولقد سبقه ابنُ السراج الدمشقيُّ أيضاً ، إلى بُغيته ، حين زعم أنه نصح صديق طفولته ، أبا العباس « على سبيل الشفقة والمحبة »!! برسائل لا تحصى ، أمره فيها بالاشتغال بما يفيده ، ونهاه عن ضدّ ذلك وقال : « . . . ما زلنا نرسل إليه ، ونعلمه بأن اشتغاله بأهمّ مما هو فيه (مما ذكره الصفدي أيضاً) أولى وأحرى ، وعيّنا له كتباً في فنون يجب إصلاحها ، والتنبيه على أماكن منها . . . »[2] .

هكذا اتَّفقتْ أُمنيّة المجاهرين بعداوتهم والمخاتلين ، الذين أخبر عنهم ابن سيد الناس ، ومضمون هذه الأمنية المكرُ بشيخ الإسلام بصرف « طاقاته » ـ كما قلت ـ إلى غير ما كان بسبيله ، فيترك الإنكار عليهم في بدعهم التي أفسدتِ المسلمين .

عجباً لهذا الصفدي !! أبوقاً كان لخصوم شيخ الإسلام ؟[3] وإن كان كبُرَ

---

(١) ما يظن أن تكون مصنفاته جميعها عند الصفدي ، وإن شئت أن تقف على مصدره الذي نقلها عنه ، فانظر الكتاب الذي صُححت نسبته إلى ابن رشيق بعد أن ظُن لغيره في (أسماء مؤلفات ابن تيمية) في : الجامع لسيرته ٢٨٢ .

(٢) التشويق : الورقة ١٥١ ، ١٥٢ ، (١٩٨ ، ١٩٩) .

(٣) تأمل صنيع ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه « الرد الوافر . . . » ، ألا تسأل : لم=

عليك وصفي إياه بـ« البوق » ، فاقرأ نظم شيخه التقيّ السبكي الذي يُبدي فيه رأيه في كتاب « منهاج السنة النبوية » حين أُوقفَ عليه ، يستبن لك أنه بنعتي حقيق . قال ضمن أبيات هذا شاهدي منها :

إنَّ الرَّوافضَ قومٌ لا خلاق لهم ... من أجهل الناس في علمٍ وأكذبهِ
والناس في غُنيةٍ عن ردّ إفكهم ... لِهُجنة الرفضِ واستقباح مذهبهِ[1]

هذا عقل شيخه الذي طار به مديحاً ، وذلك مبلغه من العلم ، يقول شيخه : نعمْ ، إن الروافض أجهل الناس وأكذبهم ، ولكن الناس مستغنون عن الردّ عليهم . وأنت إذا رأيت الرجل يكتب في أمرٍ الناسُ عنه في غنىً ، ألا تحكم بأنه في تضييع الزمان ؟ وهذا عين ما ثقفه خليل بن أيبك « إسْفَنْجُ » أفكار السبكيّ ، وإن شئت فقل الآن : « بوقه »!!

ولله درّ أبي المظفر يوسف بن محمد السرَّمري (ت ٧٧٦هـ) الذي ردّ على السبكي مفترياته ، وقلة إنصافه ، في أبيات طويلة منها :

أَكلُّ ما ظهرتْ في الناس هُجنتُه ... يصيرُ أهلاً لإهمال النّكيرِ بهِ ؟!
والله لا غُنيةٌ عن ردّ إفكهم ... بل ردّه واجبٌ أعظمْ بموجبهِ
أيتركُ الأمر بالمعروف مُطّرَحاً ... والنهي عن منكرٍ ؟! ما مَن يقول بهِ

في قصيدة قوية أتَتْ على الباطل في منظوم السبكي من القواعد[2] .

= جعله مِن « الأناسي الكثير » الذين أغفل الاستشهاد بكلامهم ؟ (٥٧ ، ٢٣٩)وكذلك غيره من قدماء من ترجم له ، أرأيت من قال : وقال الصفدي . . . ؟ .

(١) الأعيان : ٣/ ٤٣٤ ، واقرأ بقية الأبيات ، حيث مدحه بشيء ، ثم نقض ما فعل من طريق آخر .

(٢) منهاج السنة : ١/ ١١٩ ، مقدمة المحقق ، وانظر الرد الوافر : ٢٣٢ . قلت : ونُسبت قصيدة السرّمري في مخطوطة لها إلى « اليافعي »!! وهو آخر من يُظنّ أن =

وسبحان الله تعالى !! ما يفعل التعصب بصاحبه ؟! ليت شعري ماذا يبقى من الصفدي إن جهل قدر المصنفات المفيدة ، التي ألفها أهل العلم والتحقيق ، أَيُمدَحُ لأدبه الهابط ؟ أم لوظيفته عند تنكز ؟ يبقى منه حينئذ ناسخ من النساخ (المثقفين) جعل ينسخ في (فراغه) في الديوان (مقرّ الوالي) منتخباته من الكتب والمجاميع ، ومما نَظَمَ في فهرسةٍ ما ، حتى خرجت (تذكرته) وتاريخه[١] .

* * *

= تنسب إليه ، لعداوته لابن تيمية ، والعجب للأستاذ الفاضل : عبد الرحمن دمشقية حين وافق على ذلك ؟ انظر : المقالات السنية : ص ٨٣ ، وموسوعة أهل السنة : ٢/ ١٠٣٢ .

(١) حفظ لنا التاج السبكي في ترجمته للصفدي شاهداً لما أقول ، وذلك عند حديثه عن كتاب (التوضيح) للصفدي .

كُتب أبي العباس ابن تيمية!!

كـــتُبُ شيـخ الإسلام ابن تيمية ، ومـــا أدراك ما كُتُبُه ؟! سمَّاها الإمـــام ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ) فتحاً لا يُوصف ولا يعبّر عنه[١] .

---

(١) ابن عبد الهادي : الورقة ٣٨ ، وأقول : لقد رجعتُ إلى مصادر ترجمة ابن عبد الهادي ـ رحمه الله تعالى ـ مؤلف الكتاب المطبوع باسم « العقود الدرية » في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية مبتدئاً بمعاصريه ، ومنتهياً بالذين ذكروه من المتأخرين ، مثل إسماعيل باشا (ت ١٣٣٩هـ) صاحب الذيل على كشف الظنون ، ممن لم يدرك طبع الكتاب بمصر أول مرة ، فما وقفت لاسم « العقود الدرية » بين مؤلفات ابن عبد الهادي ـ رحمه الله تعالى ـ وإنما المذكور في « ذيل طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٣٨) : « ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية » ، وقال عنه المؤلف ابن رجب (ت ٧٩٥هـ) إنه : « مجلد » ، أما مرعي الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) فذكره في ترجمة ابن عبد الهادي قوله : « ومن مصنفاته كتاب مناقب ابن تيمية ، في مجلد» (الشهادة الزكية : ص٥٢) . وقرُب إسماعيل باشا من الصواب في اسمه حين قال : « نبذة في ترجمة تقي الدين بن تيمية ، ومناقبه » (هدية العارفين : ٢/ ١٦٧) ، ثم درج أكثر من أشار إلى هذا الكتاب بعد طبعه بمصرسنة ١٣٥٦هـ على تسميته بما لم يسمه مؤلفه به : « العقود الدرية . . . » لا أستثني من ذلك الزركلي فمن دونه ، فرحم الله الأستاذ حامداً الفقي(ت ١٣٧٨هـ) من أين جاء بهذه التسمية المسجوعة فعَنْوَن بها الكتاب ؟ فإن كانت نسخته التي اعتمدها قد كُتب عليها ذلك إن كان لجديراً به ، وبالذي نشر الكتاب نشرة حديثة التاريخ ـ وهي للتاريخ حديث ! ـ أعني الأستاذ طلعت بن فؤاد الحلواني ، الإشارة إلى أن هذه التسمية لا ذكر لها في المصادر أصلا . والذي يؤكد أن هذا العنوان « العقود الدرية» ليس للمؤلف ، و أنه ربما كان من تزيد ناسخ ـ أو من تسمية الفقي ـ أن أقدم نسخة تعرف من الكتاب (نسخة كوبرولي رقم ١١٤٢ التي حصلتُ على نسخة CD منها) ليس فيها من كلمة « العقود » « عقد » واحد، وإن كان=

وقال فيها الإمام ابن قيم الجوزية ، (ت ٧٥١هـ) :

فاقرأ تصانيف الإمام حقيقة شيخ الوجود العالم الرباني

حتى قال :

وكذا « جوابٌ للنصارى » فيه ما يشفي الصدور وإنّه سفران

وقرأتُ أكثرها عليه فزادني والله في علمٍ وفي إيمان

= الكتاب في قيمته عقوداً دريّة ولؤلؤيّة . هذا ما عنون به ابن عبد الهادي كتابه ، والله أعلم : « هذا كتاب مختصر في ذكر حال الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، وذكر بعض مناقبه ، ومصنفاته رضي الله عنه » ، وأثابه الجنة بفضل رحمته آمين . (فائدة) الناسخ : عبد الرزاق بن محمد بن أحمد بن أبي الفتح بن علي الحلبي البزاز (كان حياً سنة ٧٥٨ هـ) ، يحتمل أنه من تلامذة شيخ الإسلام ، لأني رأيته قال كلاماً على أحد تلاميذ شيخ الإسلام يشعر بذلك ، واسم التلميذ المتكلم فيه : عبد الله بن سعيد ، المعروف بابن أردبين (ت ٧٥٤ هـ) قال فيه الناسخ عبد الرزاق : « . . . وهو صاحب الشيخ تقي الدين ، سامحه الله تعالى فيما جناه على الشيخ من تصرفاته التي أنتجت فتناً كان عنها ما كان ، ولا شك أنه لا يقصد ضرراً للشيخ ، ولكن كان يبلغه ما يوجب له أن يقول ، فيقع ما يسعى في سدّ ذلك الخَرق ، ولمّ ذلك الشعث وإصلاح الشغب ، ولم يزل المذكور كذلك إلى أن فارق الحياة ، وكان خيراً . نقله كما شاهده عبد الرزاق بن محمد بن أحمد الحلبي البزاز ، لطف الله به » . ولم يتحمل عبد الرزاق الحلبي هذا سطوراً باطلة من ترجمة ابن تيمية بقلم ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ) نقلها في آخر مخطوطة كتاب ابن عبد الهادي فحذفها . انظر : مخطوطة كوبرلي ، الورقة ١٦٧ ، وبغية المرتاد : ١٦٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن أردبين السكندري في : الوفيات « ٢/ ١٣٦ ، والدرر : ٢/ ١٨٧ ، والمعجم المختص : ١٣٢ ، وانظر باطل كلام ابن فضل الله العمري الذي أشبَه به باطل « خليله« الصفدي في : جامع سيرة شيخ الإسلام : ٣١٦ ، وطبقات السبكي : ١٠/ ١٤٩ ، ١٥٠ . وقال في مسالكه عنه : « . . . هو خليلي الذي أنادي ، وصاحبي إذا شكرت الأيادي . . . » ١٢/ ٤٨٠ .

قلت : يمكنك أن تعدّ قَدْح الصفدي في كتب شيخ الإسلام شاهداً على بُعد فهم الصفدي لكُتب العلم العالية ، إذ لم يظهر عليه أنه أفاد منها علماً ولا إيماناً كما كان من ابن القيم وغيره من أصحاء العقول ، وكيف يفهما أو يُفيد منها وهي على بُعْدِها عن فهمه وقلبه بعيدة عن عينيه أيضاً ، ألا ترى إلى بعض لَمْزِهِ الذي هو امتداد لـ « وضع الزمان في الرد على النصارى. . . » حين قال في عرض كلامه على الرسالة القبرصية : إنها في مجلدين ، وقال إن شيخ الإسلام أجاب عما ورد من نصارى تلك الجزيرة مستخدماً هذا التعبير و«عبث بها مدة ، وأولع بهما»[1] وأخلق بالبيت في ختام فصل الأبيات السابقة أن يعني به التقي السبكي ، الذي ما إن قرأ « الكافية » حتى تطلّب ابن القيم أياماً[2] :

والفَـدْمُ يُـوحِشُنـا وليـس هنـاكـم فحضـــوره ومَغيبُـــه سيـــان[3]

ونقل الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ فصلاً من « الجواب الصحيح » في تاريخه ، وامتدحه بقوله : « . . . وسلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتجة ، بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه »[4] ، وقال عن كتاب « منهاج السنة » : « . . . أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة ، وهو كتاب حافل »[5] ، وخذْ عندك هذه العِبرة من إمام معاصر للصفدي ، لم يلحق أبا العباس شخصاً ، لكنه أدرك عظيم فضله وعلمه يقال له : أحمد بن طرخان المَلْكاوي (ت ٨٠٣هـ) ، كان أعلم بشيخ الإسلام ، وقَدْر تصانيفه من أخي

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٦.
(٢) الأعيان : ٤/٣٩٦ .
(٣) الكافية الشافية : ٢٦٨ـ ٢٧٠ ، وقد ضُبطت كلمة : الفَدْم ، في جامع سيرة أبي العباس : « والقِدم » ، ص ٣٤٢ ، فلتصحح .
(٤) ابن كثير : ٦/ ٧٢ .
(٥) ابن كثير : ١٤/ ١٣٠ .

الصفديين الذي أنعم الله عليه ، فسمع من ابن تيمية ، ولكن بأُذُنٍ حاضرة عنده ، وقلب ـ كما يبدو ـ عند خصومه : ابن الزملكاني ، والسبكي ، ومن على شاكلتهما ذلك أن الملكاوي ـ رحمة الله عليه ـ كان فَهِماً غير متعصب ، فعَرَف العبقرية والعلم الذين تمازجا في كتب شيخ الإسلام ، وبلغ من حِرْصِه على الظفر بها أنه كانت لديه نسختان من « شرح مسلم « للنووي ، فباع إحداها ، واشترى بثمنها كتاب « الجواب الصحيح « الذي هو عند الصفدي وأمثاله نتاجُ تضييع الزمان »!![1] .

إن من حُكْم الإنصاف ألا يقال : ضّيع الصفديُّ زمانه في كتابه « الوافي » وما أشبهه من مصنفاته التي أحسن في جمعها(حفظ لنا ببعض ما نقل من كتب العلماء ما فقد منها) ، فكيف يغضي المنصفُ الطرفَ عن هذه الشناعة التي تمحق عدالة من رضي بها فضلاً عمن قالها ؟ ثمّ لا يدرى ما سكوت محبي شيخ الإسلام عن تقريع الصفدي لجورِ ما هَذَرَ به في شيخِ الإسلام أبي العباس ، ومؤلفاته ؟[2] .

---

(١) الرد الوافر : ص ١٤٠ ، وثم « ملكاوي » آخر أيضاً اسمه إبراهيم (ت٨٠٤ هـ) محب لشيخ الإسلام ونهجه . انظر : تاريخ ابن قاضي شهبة : ٤/ ٢٧٤ .

(٢) كان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، ممن يُظهر في كتاباته حبّه ، ولكن يريب المتأمل من أمر محبته كونه ينقل الفرية الصفدية هذه ولا يردّ عليها ، بل أوردها إيراد المقبول ، وما علق بشيء ، وكأنها مسلّمة لا تحوج إلى سطرٍ من الدفاع العلمي عنده . فإن قيل : ابحث له عن عذر . قلت : أنى بعذر وقد أودعها كتاباً عنون له بقوله : (العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج) ومن غاياته التنويه بحرص أولئك العلماء على أوقاتهم ، وإذ ضَمَّ ابن تيمية في عديدهم ، ثمّ لم يستنكر كلمة الصفدي ، ماذا تكون النتيجة ؟ (انظر الكتاب المذكور ص١٤ ، ١٥ ، و١٠٧ الحاشية) إنّ أبا زاهد كان أولى الناس بالسبق إلى الإنكار على الصفدي فقد كتب في « قِيمة الزمن عند العلماء » أيضاً!! . وكنت أحبّ للشيخين الفاضلين ، الذين صنفا=

. . . .

* * *

= « الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية » إيفاء التعليق حقّه على كلمة الصفدي . وإن كان تعليقهما خيراً من كلام الشيخ الفاضل صاحب (التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية) ص٢٤ ، أما التعليق العُجاب ، فتعليق من فهم كلام خليل مدحاً حين قال : « وقال الصفدي في أثناء مدحه لشيخ الإسلام : وضيّع الزمان. . . » انظر كتاب : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وجهوده في الحديث وعلومه ، ١/ ٥٥ .

تأدب تلاميذ شيخ الإسلام

وردت عن بعض تلاميذ ابن تيمية طَّلِبَة فيها أمنيَّة قريبة من أمنية الصفدي ، ولكن لا يُعلم أنهم صرفوا كلمةً عوراء في حَقّه ، تُبدي دخلة صاحبها ، ثم إن سؤال هذا البعض المخلص ـ وأحسب أنهم كانوا في أوائل الطلب ـ والوعي لما ينبغي فعله من تصنيف ما تحتاجه أمة الإسلام ، مما عرفه شيخ الإسلام وعرّفه لهم ، وما هو أولى بـ« التركيز » عليه في الدعوة الإصلاحية في تلك الأوقات شيء ، وقول الصفدي وأمثاله ذلك بعد وفاة شيخ الإسلام بمدة ، والغاية من تمنيّهم ، شيء آخر .

وإليك ما ورد في ذلك عن تلميذين من تلامذته ، أما الأول ، فأبو عبد الله بن رُشيّق (ت٧٤٩هـ)[١] الذي لا يعلم من مبلغ علمه كثيرُ شيء[٢] .

---

(١) انظر ضبط اسمه في : ذيل مشتبه النسبة : ٢٧ .

(٢) وإن عرف أنه ناسخ متمكن من صنعته ، تمرن على خط شيخ الإسلام حتى كان فاكّ رموزه ، مما جعله ملجأ محبي أبي العباس بعد وفاته لينسخ لهم كتبه أو يقرأ ما أعضل عليهم منها . إلا أنه كان كمن عرف من نفسه هذه الميزة فرفع سعر ما ينسخه لهم ، ألا ترى إلى قول « ابن مرّي » في رسالته لأصحاب شيخ الإسلام : « . . . فاحتفظوا بالشيخ أبي عبد الله ـ أيده الله ـ وبما عنده من الذخائر والنفائس ، وأقيموا لهذا المهم الجليل بأكثر مما تقدرون عليه ، ولو تألمتم أحياناً من مطالباته ، لأنه قد بقي في فنه فريداً . . . ، فاحتسبوا مساعدته عند الله تعالى ، وانهضوا بمجموع كلفته ، فإن الشدائد تزول . . . ، وأوصيه بالصبر أيضاً ، وبمعاملة الله سبحانه فيما هو فيه ، وإن قصر الإخوان في حقه ، وليطلب نصيبه من الله تعالى متكلاً عليه في رزقه المضمون ، ومجملاً في الطلب . . . » انظر : الجامع لسيرة ابن تيمية ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

أَرسل إليه رسالة ، وأبو العباس في (إقامته الجبرية) ، بعد سنة ٧٢٦هـ سأله فيها أن يؤلف تفسيراً كاملاً للقرآن[١] ، (ولعل ذلك قد كان من ابن رشيق رغبة منه في أن يكفَّه عن كتابة ما يغيظ أعداءه طلباً لسلامة شيخ الإسلام) فكان جوابه ـ رحمه الله تعالى ـ جواباً للصفدي ، وغيره . قال رحمة الله عليه : « إن القرآن فيه ما هو بيّنٌ بنفسه ، وفيه ما قد بيّنه المفسرون في غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء ، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ، ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدتُ تفسير تلك الآيات بالدليل ، لأنه أهم من غيره[٢] وإذا تبين معنى آية تبين معنى نظائرها » .

أما ما نقله ابن رُشَيِّق عنه من قوله : « قد فتح الله عليّ هذه المرة من معاني القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنَّوْنها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن (قال ابن رشيق الراوي) أو نحو هذا . . . » فإن هذا لا يعني ندمه على جهاده الذي قضى فيه أكثر عمره ، معاذ الله أن يكون ندم على انتهاجه سبيل : « قال الله ، قال رسوله » ، وإنما نفهم هذا على ما يتّسِقُ ، وما كتب أبو العباس نفسه ، والأئمة من خُلّص تلاميذه ، من أن ما فتح الله عليه في تلك المدة استخدمه في ردوده على المبتدعة .

وإني لأزعم أن في النقل عنه قصوراً في التعبير ، أغلبُ الرأي أن مصدره ابن رشيق ، فإنه يفهم أنه كتب ذلك في مختصره ، مما حفظه عن الرسالة فوَهِمَ ، ألا ترى إلى قوله : « أو نحو هذا » ؟ أيكتبها مَن يَنقل مِن رسالةٍ بين يديه ؟[٣] .

---

(١) لا أدري أكان لتكسبه بالنسخ ـ غفر الله له ـ دخل في طلبه هذا أم لا ؟ .

(٢) انظر فقه ابن تيمية يقدم الأهم دائماً .

(٣) فضلاً عن كونها (كلمة تَضْيِيع) لا تناسب من سيرة ابن تيمية بعد سنة ٦٩٠هـ مرحلةً=

كيف تفهم قول ابن رشيق على فهم يداني قول الصفدي ، وأنت ترى ابن عبد الهادي ، (صاحب الكتاب الذي نقل هذه الحكاية عن ابن رشيق) ، يقول : « . . . وما برح في هذه المدة مكبّاً على العبادة ، والتلاوة وتصنيف الكتب ، والرد على المخالفين . . . » ؟[1] ، وكان مما عثر عليه من رسائله الأخيرة التي كتبها بالفحم قوله : « بل جهادنا في هذا مثل (كتبت في نسخة كوبرلي : ثم) جهادنا يوم قازان والجبلية ، والجهمية ، والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] .

وقيد محبوه تاريخ ذكره معارضة لأخيه عبد الله أبي محمد ، وقفوا عليها في كلام له على الاتحادية ، وهو بقلعة دمشق ، بعد موت أخيه في جمادى الأولى سنة ٧٢٧هـ ، بقريب من شهر ، فنقلوا قوله : « فظهر ضلال شيخهم التلمساني حيث قال :

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني ... والوَجدُ أصدق نهَّاء وأمَّارِ
فإن أُطِعكَ وأعصِ الوجد عُدت عَمٍ ... عن العَيانِ إلى أوهام أخبارِ
وعينُ ما أنت تدعوني إليه إذا ... حققته تره المنهي يا جاري

قال شيخ الإسلام : ويرحم الله أخي أبا محمد عبد الله ، عارض هذا فقال :

يا عاذلي أنت تنهاني وتأمرني ... والحقّ أصدق نهّاءٍ وأمّارِ
فإن أُطِعك وأعصِ الوَجد عدتُ عَمٍ ... عن الصواب إلى أوهام كفار

= تُعلم وقد نشر كتاب ابن رشيق (أسماء مؤلفات ابن تيمية) ، في : جامع السيرة ص ٢٨٢ ، وقد صحح المحققان الفاضلان نسبته إليه بعد أن نشر منسوباً إلى ابن القيم .

(١) ابن عبد الهادي : الورقة ٢٨٤ .

(٢) ابن عبد الهادي : الورقة ١٣٢ .

وعين ما أنت تدعوني إليه مني حققت تره المخلوق للباري(١)

وأما الآخر فالشيخ العلامة البَزَّار ، العالم الفقيه (ت ٧٤٩هـ) ، وتأمل فَرْقَ ما بينه وبين ابن رشيق الناسخ ، بله الصفدي ، من فهمٍ وعلم ، قال : « . . . ولقد أكثر ـ رضي الله عنه ـ التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم ، فسألته عن سبب ذلك ، والتمستُ منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ، ليكون عمدة في الإفتاء .

فقال لي ما معناه : « الفروع أمرها قريب ، ومن قلد ـ المسلم ـ فيها أحد العلماء المقلدين ، جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه ، وأما الأصول : فإني رأيت أهل الضلالات والأهواء : كالمتفلسفة والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والنصيرية ، والجهمية ، والحلولية والمعطلة ، والمجسمة ، والمشبهة ، والراوندية ، والكلابية ، والسالمية ، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال ، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين ، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قلَّ أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة ، مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق ، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده .

فلما رأيتُ الأمر على ذلك بانَ لي : أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم ، وقطع حجتهم وأضاليلهم ، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ، ويزيف دلائلهم ، ذَبّاً عن المِلَّة الحنفية ، والسنة الصحيحة الجلية ،

---

(١) الدرة المضية ، مخطوطة (بوردر) بُرْدُرْ رقم ٨١٥ ، الورقة ١٢٠ ، واسم ناسخها : مسعود بن محمود بن يوسف بن علي الخوارزمي (كان حياً في ١٣ شوال سنة ٧٩٠هـ) وكتب على الوقفية التي عليها : « وقف هذا الكتاب ابن الشيخ مصطفى المأذون بالإفتاء بمدينة (بوردر) بشرط ألا يخرج من الخزانة » .

ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن ، وادعى علو المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام » .

حتى قال : « . فهذا ، ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله به من الأجوبة النقلية والعقلية .

قلتُ (البزّار) : وقد أبان بحمد الله تعالى ، فيما ألف فيها لكل بصير ، الحق من الباطل ، وأعانه بتوفيقه حتى ردّ عليهم بدعهم وآراءهم ، وخدعهم وأهواءهم ، مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية حتى يجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جليّة واضحة ، يعقلها كل ذي عقل صحيح ، ويشهد لصحتها كل عاقل رجيح .

فالحمد لله الذي منَّ علينا برؤيته وصحبته ، فلقد جعله الله حجة على أهل هذا العصر[١] المعرض غالب أهله عن قليله وكثيره ، لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخرة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . لكن الله ذا القوة المتين ضمن حفظ هذا الدين ، إلى يوم الدين ، وأظهره على كل دين ، فالحمد لله رب العالمين »[٢] .

* * *

(١) هذا لفظ تلميذه البزّار ، الفقيه العالم ، وهذا لفظ خليل الصفدي : « . . . فما رأيت التطويل معه . . . »!! و« لقول ابن تيمية زخرف »!! وانظر تعبيره في ترجمة أخي الإمام ، الشيخ الصالح : عبد الله بن تيمية : « . . . وكان أخوه العلامة تقي الدين يخدمه ، ويتأدب معه ، ويحذر أن يخدعه » ، وقارن بما في « ذيل تاريخ الإسلام » ص٢٥٠ ، لترى كيف يفسد ما ينقله بسجعه ، ومكنون قلبه .

(٢) الأعلام العلية : ص ٣٣ـ٣٥ .

ومن الذي لم يمتدح علم شيخ الإسلام ؟

أما قضية مدح الصفدي ، شيخَ الإسلام ـ سقى الله قبراً ضَمَّ أعْظُمَه ـ فقد تعلم أن المديح ، والهجاء وغيرهما فنون كانت رياضة للشعراء في عهده ، فليس مديحُ مَن مَدحَ شخصاً في ذلك الزمان بدليل قاطع على حبه للممدوح ، وقد قرَّرَ ابن الوردي هذه « الرياضة » لدى الشعراء في مقدمة ديوانه ، ذاكراً أنها على وجه امتحان القريحة[١] ، وشاهد ذلك مرثيتا : ابن الوردي ، والصفدي لشيخ الإسلام ، فقد تخيَّرا لرويّ قصيدتيهما : الطاء والضاد ، ليظهرا البراعة ، وصاحب الذوق تأبّى عليه سليقته أن يستحسن مِنْ مَبناهما بيتاً[٢] .

صحيح أنه قال : « وعلى الجملة ، فكان الشيخ تقي الدين بن تيمية أحد الثلاثة الذين عاصرتهم ، ولم يكن في الزمان مثلهم ، بل ولا قبلهم من مئة سنة (!!) وهم : الشيخ تقي الدين بن تيمية ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وشيخنا العلامة تقي الدين السبكي • وقلت في ذلك :

ثـلاثـةٌ ليـس لهـم رابـعٌ   فـلا تكـن مـن ذاك فـي شـكّ
وكلهـم منتسـب للتُّقـى   يقصـر عنهـم وصـف مـن يحكـي
فـإن تشـا قلـت ابـن تيميـة   وابـن دقيـق العيـد والسبكـي[٣]

قال الصفدي هذا ، ولكنه أبان ـ في غير موضع ـ ما عناه في ابن تيمية

(١) ديوان ابن الوردي : ١٧ .
(٢) الأعيان : ١/ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، والكلام على الناحية الفنية لا معناه .
(٣) الأعيان : ١/ ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

بذلك ، فإنما كان يمدح علمه وذكاءه ، وذلك ما أذعن له خصومه ، وأولهم شيخه السبكي ، الذي كتب معترفاً بذلك ، وقال إنه تحقق : « كِبَرُ قَدْره ، وزَخارة بحره ، وتوسُّعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفَرْط ذكائه واجتهاده ، وبُلوغه في كلٍّ من ذلك المبلغ الذي يجاوز الوصف »[(١)] ، أما ما نَهَضَ إليه شيخ الإسلام من الدعوة إلى مفهوم السلف الطيب للكتاب والسنة ، التي صار بها ابن تيميةَ ابن تيمية ، مع ما آتاه الله تعالى من الذكاء والخصال النادرة المُمَدَّحة ، فليس ذلك البتَّة مَعْنِيٌّ مدائح المخالفين .

وللمدح أسباب غير الإعجاب والمحبة ، فمنها « غرض » ذكره الصفدي عن ابن الزملكاني ، وأبياته الثلاثة المشهورة في مدح أبي العباس ، في بدايات طلبهما العلم ، قالها فيه قبل نهوض شيخ الإسلام بالدعوة الإصلاحية ، التي عبّر عنها صديقهما الآخر : ابن السراج بقوله : « . . . ولما عزم على إبداء المخالفة نهيناه كثيراً . . . »[(٢)] ، قال الصفدي بعد نقله الأبيات : « والذي أراه أن هذه الأبيات كتبها الشيخ كمال الدين ، في حياة الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، لأنه كان يخالفه ، ويريد أن ينتصر عليه بالشيخ تقي الدين ابن تيمية ، والله أعلم » ، فإن صحّ هذا ، فهو من أطوار ابن الزملكاني الغريبة[(٣)] .

ولله درُّ ابن الوردي (ت٧٤٩هـ) الذي كان ـ فيما يبدو ـ أقرب منزلةً لشيخ الإسلام ، وأكثر مودة وأدباً معه من أخي الصفديين[(٤)] يظهر ذلك في موقف لابن الورديّ شَبيه بموقف المعجب بنفسه ـ الصفدي ـ إلا في جواب شيخ الإسلام له ، وتعليق ابن الوردي عليه ، فإنه لما لقيه بمسجده بالقصّاعين (حيٌّ

---

(١) الرد الوافر : ١٠٠ .
(٢) تشويق الأرواح : الورقة ٩ .
(٣) الأعيان : ١/٢٤٧ .
(٤) بين مرثيته في ديوانه ، ص : ٢٦٦ ، والتي نقلها الصفدي فروقاً .

بدمشق) ، وبحث بحضرته في الفقه والتفسير والنحو ، أعجبه ما سمع منه ، وكافأه على جودة أخلاقه مع الشيوخ والأئمة ، وتأدبـّـهِ معهم بأن قَبلّهُ قُبلةَ المعلم تلميذه البارّ المجتهد ، وتأملْ مدلول كلمة هذا التلميذ بعد انقضاء سنوات مديدة على ذلك معلقاً على هذه « الجائزة » من شيخ الإسلام قال : « . . . وإني لأرجو بركة ذلك »[1] .

* * *

(١) لابن الوردي ـ عفا الله عنه ـ « صوفياته » التي لا يوافق عليها .



الفصل الثالث

هل رجع الحافظ الذهبي عن ثنائه على الصفدي؟



ما كل رأي الذهبي بذهبي!

بَدْأَة ذي بَدْء ، أنبّه إلى أنّ الذهبي قد ترجم للصفدي في كتابين من كتبه ، لا في كتاب واحد كما ظنّ كثيرون ، فقد أورده أولاً في : « معجم شيوخ الذهبي » ، في (إصداره الأول)[١] ، ثم في « المعجم المختصّ » .

ثم إني أقول : إن لأبي عبد الله الذهبي ، المكانة العالية في قلوب العلماء ، وطلاب العلم ، منذ عصره ، وحتى يوم الناس هذا ، وقد كتب الله تعالى له ولكتبه القبول ، فقلما خلت مكتبة طالب علم من تصانيفه ، وإن محبتي له لا تمنع من التنبيه على خطأ ألقاه في بعض ما كتب ، فلست بحمد الله تعالى ممن يعامل أولياء الله تعالى معاملة الصوفية شيوخهم[٢] بل أعامله معاملة الإمام المحترم من أئمة المسلمين ، يُذكر ما أخطأ فيه ، ويُستغفر له .

---

(١) هذه تسمية استعرتها من مقدمة (د . محمد الهيلة) ، لتحقيقه للكتاب أما نسخته وأعني معجم الشيوخ ، فمخطوطة في « أحمد الثالث » في إصطنبول ، وترجمة الصفدي بها في الورقة ٥٧ ، وناسخها : أبو الوفاء محمد بن خليل الصالحي ، وفرغ من نسخها عن أصلها الذي ذكرته ، في ٢٤ ربيع الأول ٨٧٨هـ ، ومصورتها في مكتبة المسجد النبوي . وله « طبعة » في بيروت (وللمعجم المختص أيضاً) ناهيك بها « طبعة » قد مسختها (روح) تاجر من عالم خيال سراق الفكر الإنساني ، فأقبح بها من (روحية)!! (يفهم هذا أصحاب تلك الدار الماسخة) .

(٢) لهم في ذلك كلام طويل عقيم ، مؤداه إخراج شيوخهم من « عصمة الأنبياء » ، وإدخالهم فيها من باب آخر !! .

ترجمة الصفدي في (الإصدار الأول) من معجم شيوخه[١] :

قال : « خليل بن أيبك ، الأديب البارع ، صلاح الدين ، أبو الصفاء الصفدي ، الكاتب ، ولد سنة ست وتسعين ، وشارك في الفنون ، وتقدم في الإنشاء ، وجمع وصنف ، أنشدنا له ولغيره » .

ويفهم أنه كتب هذه الترجمة قبل شهر صفر سنة ٧٢٧هـ ، والصفدي شاب في الثلاثين من عمره تقريباً ، وكان كاتباً ، ولكن ليس عند نائب السلطنة « تَنْكِز » ، المبغَّض إلى الذهبي ، لظلمه وعدائه للدعوة السلفية ، وقد يروي الذهبي عن رجل وهو على استقامة ، فإذا ما ساء أمره ، وفسد حاله ، تركه وحذر منه ، كما قال في (أحمد بن إبراهيم المقدسي) : « . . . سمعنا منه في حال الاستقامة ، ولا تنبغي الرواية عنه لسوء سيرته »[٢] .

ترجمته في (الإصدار الأول) من المعجم المختصّ بالمحدّثين :

من اللافت للانتباه أن يُترجم له في معجمه هذا ، بعد تعيينه كاتباً عند نائب الشام « تنكز » بستة أشهر تقريباً ، قال فيه : « خليل بن أيبك ، الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل ، صلاح الدين ، أبو الصفاء الصفدي ، من موالي الأمير الكبير فارس الدين ألبكي ، ولد سنة ست وتسعين وستمئة[٣] ، وطلب العلم ،

---

(١) أخبر الصفدي عن معاجم الذهبي بالقول : « . . . معاجم أشياخه » ، وزاد المقريزي تفصيلا حين قال : « . . . ومعاجم شيوخه ، بضعة عشر معجماً ، وخرّج لنفسه معجمين ◦ »المقفى الكبير : ٥/ ٢٢٤ ، وانظر الدرر : ٣/ ٢٠٥ .

(٢) معجم الشيوخ : ١/ ٢٧ ، وفي المترجم لهم من هو « أعرابي » ١/ ٣١٠ .

(٣) في المطبوعة : (تسع) ، وفي مخطوطة د◦الهيلة : (ست) ، قلت : وذكره في تاريخ الإسلام ، عند مواليد سنة ٦٩٧هـ (؟) ، فقال : « وفيها ولد المولى صلاح خليل الصفدي « ص ٣٤٣ ، وله ذكر في « ذيل التاريخ » : ص ٢٠٩ ، ٣٦٦ ، وأما قوله هناك : « وتخرج به فضلاء ، منهم المولى خليل بن أيبك الصفدي » ، فقد =

وشارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وقرأ الحديث ، وسمع من يونس الدبابيسي ، وحمل عن أبي حيان ، وأبي الفتح الأندلسيين ، وكتب المنسوب ، وجمع وصنّف ، والله يمدّه بتوفيقه ، سمع مني وسمعت منه ، وله تواليف وكتب وبلاغة . حدثني خليل الفاريّ[١] ، أنا محمد بن أبي عمرو الحافظ ، أنا العزّ الحرانيّ ، أنا ابن الخريف ، فذكر حديثاً هو في مجموع صغير ترجمته في صلاة (الصبح) »[٢] .

وقد يعجب نفرٌ لم يقفوا على ثناء الذهبي في خليل الصفدي مِن قبل ، فتأبى عليهم معرفتهم بمنهج الإمام الذهبي المخالف لطرائق أهل الكلام ومنهم الأشاعرة ، أن تستمرىء مديحه ، وربما لامه لائم ، لأنه لم ينقده بشيء من النقد مع استحقاقه ضُروبه ، إلا يكن نقداً لمنظومه ، فتجريحاً لخدمته النائب (السَّبُعِيّ) الأخلاق « تَنْكِز » ، ثم لأشعريَّته المتزمّتة ، ولشناعة مفترياته على شيخه ، شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] ، ولميله إلى التفكير الخرافي المتمثل في أشياء منها : مدحه كتاب « الفتوحات المكية » ، وتجويزه أن يكون « رتن الهندي »صحابياً من أصحاب النبي ﷺ وقد جاء بعده بستمئة سنة ! !

= علمت حكم محقق الكتاب الخبير به حين وصفه بالمسودة ، فالقول إنه لم يجد الوقت للتعديل مختار عندي أيضاً .

(١) وردت في المطبوعة : (الفارسي)!!

(٢) المعجم المختص : ص ٩١ ، ٩٢ ، وقرأ د· الهيلة آخر كلمة في الترجمة (الضحى) ورسمها في المخطوط كما أثبتها .

(٣) الذهبي من قد عرفتَ تعظيماً وحباً لشيخه أبي العباس ، حتى كتب « الدرة اليتيمية في السيرة التيمية » ، وقد اطلع عليه ابن الوردي ، انظر تاريخه : ٢/ ٤١٣ ، وأشك أن الباشا إسماعيل رآه ، وإن ذكره في إيضاح المكنون ، ١/ ٤٦٢ ، وهدية العارفين ، ٢/ ١٥٤ .

تأنّ ولا تَعْجلْ بلومك صاحباً
لعل له عُذراً وأنتَ تلومُ ![1]

اذكر ـ أيها اللائم ـ أنّ الذهبي « إنسانٌ » تحكمه المشاعر والحاجات الإنسانية ، كسائر العلماء والمؤرخين (وإن كان قدرها مختلفاً فيهم) .

اذكر شدة الزمان الذي عاش فيه ، أمراؤه ، وقضاته ، وعلماؤه . أما أمراؤه ، فيريقون الدم الحرام ، بوسائل من العذاب مرعبة (كالتّوسِيط ، والسَّلْخ ، والعَصْر ، والخَوْزَقة ، والتغريق) ، ويَجْبون أموال الناس ظلماً ، ويبيعون المناصب ، وإذا غضبوا على إمام وعالم سجنوه (إن لم يُحيلوه إلى قاضي المالكية) ، وأما قضاته ، فيأخذون الرشوة ويظلمون ، وأما علماؤهم ، فيتعصبون لمذهب « أشعري » سائد وتصوف منحرف ، لا يرون الحقّ إلا فيهما (الأول ظاهره ، والآخر باطنه) .

وليس قولك إنْ قلت : إنّ أذى متعصبة الأشاعرة لشيخ الإسلام ، ومحبيه تَرَك في نفس الذهبي ما تركَ ، فاتخذ لنفسه المداراة معهم ، ببعيد .

ولقد تلحظ ذلك في حكايته إساءة « القضاة » لحافظ عصره ، شيخه وصديقه السلفي الإمام : أبي الحجاج المزّي (ت٧٤٢هـ) ، حين لم يولّوه مشيخة « مدرسة » إلا بعد إعطائهم خطّه (اعترافه) بأنه « أشعري العقيدة »[2] ،

---

(١) شعر دعبل الخزاعي : ص ٢٣٦ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٠/٣٩٨ ، قلت : وقد قال الإمام ابن كثير (صهر الحافظ المزي الذي أصابه من أذى المتعصبين وظلمهم ما أصابه) في تاريخه في حوادث سنة ٧١٨هـ : « وفي يوم الخميس . . . باشر شيخنا المزي مشيخة دار الحديث الأشرفية . . . ولم يحضر عنده (يعني من الأشاعرة) كبير أحد . . . وما عليه منهم إذا لم يحضروا عنده ؟ فإنه لا يوحشه إلا حضورهم عنده ، وبعدهم عنه أُنس ، والله أعلم » . ولأجل « سلفيته » التي ما كان يجهر بها ، ولكنها تعلم كما تعلم سلفية المزي =

واقرأ تعبير الذهبي : « ... وأوذي مرة ، واختفى مدة من أجل سماعه (التاريخ للخطيب) ، وأوذي نوبة أخرى لقراءة شيء من (أفعال العباد) مما تناوله الفضلاء المخالفون ، وحبس فصبر وكظم ، وقضى أكثر عمره على الاقتصاد والقناعة وقلة الدرهم... ، ثم فيما بعد ترك الحلقة ، وأُخذت منه (الناصرية) ، ثم نزل عن (العِزِّية) لصاحبه نجم الدين ، وتكفَّى بما تبقى على قلته بنسبة رُتبته ، وربما وُصِل بشيء متمّم لأوَدِه ، وباع كتابيه بألف ومئتين ، فأنفقها... » حتى قال : « وجرت في ذلك أمور ونكد من أضداد الشيخ ، وسئلنا عن « العقيدة » ، فكتب لهم المزّي بجُملٍ ، وأُعفيتُ أنا من الكتابة ، ومردّنا ـ الكلّ ـ إلى الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله »[1] .

أيُنتظر منه ، وقد أرّخ لمعاصريه ، وبينهم مَن سامَه وأحبابه الخَسْفَ ، من ذوي السُّلطة « الزّمَنيّة » ، أن يخبر بكل ما علم في تراجمهم ، وقد رأى تبعة ذلك في آحاد العلماء المتعصبين ، كابن بَصْخان المقريء[2] .

وعلى هذا كله لا يُستبعد ما حكاه التقي الفاسي (ت٨٣٢هـ) عنه ـ والفاسي تلميذ تلاميذه ـ من أنّ متعصبة الحنفية لم يسكتوا حين بلغهم جواب الذهبي على من سأله من الحنفية ، أن يجمع شيئاً في أحاديث الإمام أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) رحمه الله ، فتوقف وسهّل الأمر وعلّله بقلة أحاديثه ، وأن الحنفية أمهلته حتى إذا خرج إلى الجامع سَحَراً ، أمسكوه وأدخلوه بعض

= والذهبي ، لم يصدقه فاضل كان قد نازعه في التدريس لما قال له ابن كثير : إنه أشعري ، فقال له مخاطبه : « لو كان من رأسك إلى قدمك شَعَر ما صدقك الناس في قولك : إنك أشعري ، وشيخك ابن تيمية » !! انظر : ابن كثير : ١٤/ ٩١ ، والدرر : ١/ ٤٠ .

(١) ذيل تاريخ الإسلام : ص ٣٨٤ ، ٣٨٦ .

(٢) معرفة القراء الكبار : ٢/ ٧٤٤ .

المدارس ، وهم يوهمونه أنه سَيُذْبح ، فتلطف بهم « وأنعم لهم بما طُلب منه ، وجمع لهم شيئاً سماه : صحيفة نظيفة من حديث أبي حنيفة »[(١)] .

هكذا كان تعصب الناس ، أما الولاة ، والرعب منهم ، فتأمل كيف جعل تعليقه على رأي مؤرخ من معاصريه ترجماناً لحاله أيضاً حين قال : « وهل يسع مؤرخاً في وسط بلاد سلطان عادل ، أو ظالم ، أو كافر إلا أن يثني عليه ويكذب ، فالله المستعان ! ! »[(٢)] .

وإن من معاناته للذي لقيه في « مدارس » دمشق ، من صنف من طلابه ، كان فيهم « من يخدم السُّنة ولا يعمل بها « تعصّباً لمذهبه ، ومن يحضر درسه ، ولا يلقي بالاً لمعاني الأحاديث الشريفة ، بل كان منهم من وصفهم بقوله : « . . . عَيْنُه إلى تنبيه الشيخ تارة ، وإلى أمرد حاضرٍ تارة » ، ثم ذكر أنّ أغلب أحوال هذا الصنف من الطلبة أن « يُحدّث جليسه ، ويمزح مع الصبيان الملاح » ، وعَدّ في « نَحْس « هؤلاء : التهاون بالصلاة ، وتعاني« تلك القاذورات » ، والكذب في الحديث والنقل ، وسرقة الأجزاء ، وكشط الأوقاف ، وكانت شكواه قوية ، يشهد لها أسلوبه الغاضب حين قال : « وهل يترك الصلاة مُحدِّث إلا وهو من الرّذالة الزّبالة ، آوِ إلى التعثّر والضلالة ؟ .

فإن كمّل نفسه بتلَوّط أو قيادة ، فقد تمت له الإفادة . . . ، فهل في مثل هذا الضرب خير ؟ لا كثّر الله مثلهم ، فما حظّ الواحد من هؤلاء إلا أن يسمع ليروي فقط ، فليُعاقَبنّ بنقيض قصده ، وليُشهرنّه الله تعالى بعد أن ستره مرات ،

---

(١) تعريف ذوي العلا : ٥٠ ، قلت : ذكر بعض الحنفية أن ترجمة أبي حنيفة مقحمة في كتاب (ميزان الاعتدال) لخلو نسخ أوثق من التي اعتمدت في المطبوعة منها ، فإن صح ما حكاه المؤرخ الفاسي من تهديد الحنفية للذهبي ، فالوجه القريب في تفسير ذلك أنها كانت في إصدار (الميزان) الأول ، ثم اضطر لإسقاطها بعد .

(٢) تاريخ الإسلام ، ١٨٣ .

وليَبقينَّ مضغة في الألسن ، وعبرة بين المحدثين ، ثم ليطبعنّ الله على قلبه ، وربما سُلب التوحيد ، وطمع فيه الشيطان ، فدخل في باطنه الخراب ، وشككه في الإسلام والنبوات ، إلى أن يخسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العفو والستر »[١] والسؤال الذي يرِدُ هنا : كلّ هذا البلاء في هذا الصنف من الطلاب ، ثم لا يطردهم الذهبي أو يسعى في ذلك وهو شيخ المدرسة ؟ .

لم أقف على مصدر فيه ذكر إخراج أمثال من اشتكى منهم الحافظ ، فإن لم يطردوا حمل ذلك على أنهم من أبناء عِلْية المجتمع فعذره ، وعذر المشايخ من أمثاله داخل في ما قدمته من حال عصره .

وضَرْب آخر من تلاميذه ، أظهروا لشيخهم ودّاً وقت الطلب ، ثم ذمّوه وشتموه بعد أن أمنوا الردّ عليهم بوفاته ، حتى أوقفه أكثرهم عقوقاً له ، أعني : عبد الوهاب بن تقي الدين السُّبكي على « دَكادِكَ مِن نار »[٢] ، وتَنَقَّصَ من قدرِ كتاب « تاريخ الإسلام » قائلاً إنه : « مشحونٌ بالتعصّب المفرط » ، وإنّه أكثر فيه الوقيعة في « الفقراء » (يعني زُمَر القلندرية المتصوفة) واستطال بلسانه

---

(١) وصية الإمام الذهبي لابن رافع السلامي : ١٩ـ ٢٥ .

(٢) وأوقف معه الإمامين : المزي ، والبرزالي . انظر : طبقات الشافعية الكبرى : ١٠/٣٩٨ ، ٤٠٠ ٢/ ١٣ ، ٢٢ ، وينبغي الإشارة هنا إلى أن على الشيخ الفاضل الذي جمع « تفسير الإمام الذهبي » تصحيح معلومتين عن التاج السبكي ذكرهما في مقدمة كتابه ، الأولى : عدّه التاج من أقران ابن تيمية ، وهذا (بصرف النظر عن البون الشاسع بينهما في العلم فقط) غير ممكن ، فقد كان عبد الوهاب رضيعاً (ولد سنة ٧٢٧هـ ، وقيل : بعد ذلك بسنة) حين مات شيخ الإسلام ، والأخرى قوله عن (الرسالة الذهبية) : « ورأيت أن أول من نسبها له (يعني الذهبي) هو تاج الدين السبكي »!! أين سلمك الله ؟ هلا ذكرت مصدرك . انظر : مقدمة الكتاب المذكور : ص ٨ .

على أئمة الأشاعرة ، وزاد في مدح المجسمة!! ، وله من هذا الشَّين كلام كثير ، قد اطّرحه المنصفون[١] .

ويأتي التلميذ الآخر ، أعني الحافظ العلائي (ت ٧٦١هـ) في الرتبة الثانية في سوء الأدب بعد السبكي ، فقد أعظم على شيخه الفرية حين قال : « الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي ، لا أشك في دينه وورعه وتحرّيه ـ فيما يقوله الناس!!ـ ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات ، ومنافرة التأويل ، والغفلة عن التنـزيه . . . »!![٢] .

وقد بدا لي أنّ الصفديّ كان أقلَّهم عقوقاً ظاهراً ، وإن كان لا يتأخر عنهم كثيراً دليل ذلك في ثنايا كتابيه « الوافي » و« التذكرة » ، عند حديثه عن الشخصيات التي تكلم عليها الذهبي ، وأكثرهم من مُعَظَّمي الصوفية والأشاعرة ، وإليك هذا المثالين ، الأول منهما آية على « تحجّر » عقله وثبات تفكيره على نصرة رأي الصوفية في صحةدعوى رتن الهندي للصحبة ، مع معرفته برأي أهل الحديث في ذلك ، المتمثّل في رأي الذهبي ، وإخبار علم الدين البرزالي إياه أنَّ تعميره ، وخبر صحبته : « من أحاديث الطرقية »[٣] ، ومع هذا قال : « كأني ببعض من يقف على حديث هذا المعمّر يداخله شكّ في طول عمره إلى هذا الحدّ ، ويراجع في صدقه ، ويتردد فيه ويقول ـ إن كان ذلك مبلغه من العلم تقليداً لزاعمه ـ. . . » . ثم قال بعد كلام نقله : « والإصرار على إنكار ذلك دليل على الجهل!! »[٤] ولا يحضرني جواب له

---

(١) منهم المقريزي الذي قال : « فلا عبرة بذلك لما بين السبكي وأبيه من منافرة ابن تيمية وأصحابه في المعتقد » المقفى الكبير : ٥/ ٢٢٥ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٢/ ١٣ .

(٣) الوافي ١٤/ ٦٨ـ٧٠ . دار إحياء التراث العربي .

(٤) التذكرة ، الجزء الثامن ، نقلاً عن كتاب (سلوة الغريب وأسوة الأريب) ، لابن =

أفضل من كلمات الذهبي : « فمن صدّقه في دعواه ، فبارك الله في عقله ، ونحن نحمد الله على العافية » و« إنني عاجز منقطع معه في المناظرة » ، « فما لنا فيه طَبٌّ »[(١)] !!

وأما المثال الآخر فقوله في ترجمة شيخ أشعري ، اسمه : أحمد بن مظفر النابلسي (ت٧٥٨هـ) : « وكان جلداً في أشعريته ، مبالغاً في الانتصار لعقيدته ، قيل : إنه لم يُحدّث حنبلياً ، ويرى أنه لو فعل ذلك كان بالذمّ ملياً ، وبه تخرّج شيخنا الذهبي ، ومنه أصبح في علم الرواية وهو غير غبي ، على أن ابن المظفر ما سلم جرح الذهبي ولا طعنه ، وساقه في ركب من جرحه وظعنه ، ورماه بما الله به عليم ، وتحمل من إثمه ما يثقله ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ »[(٢)] .

قلت : قول الذهبي في النابلسي من « الاعتدال » بمكان ، بل فيه احترام لا يستحقه ، إن صحّ أنه كان يرى حنابلة زمانه مجسمة ؟ قال أبو عبد الله الذهبي عنه : « كتب وخرّج ، وفي خلقه زعارة ، وفي طباعه نفور عن المحدثين وغيرهم ، والله يصلحه والمسلمين ، فعليه مآخذ ، وله محاسن ومعرفة ، سامحه الله وإيانا » ، وقال في معجم الشيوخ : « وله فهم ومعرفة وحفظ ، على شراسة أخلاقه ـ والله يصلحه ـ فعليه مآخذ دينية ، ثم إنه صلح ، وسكنت نفسه ، وفضائله كثيرة »[(٣)] .

وللصفدي كلمة تناقلها عنه من ترجم للذهبي ، حتى كانت محفوظ بعض

= معصوم ص٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١) سير أعلام النبلاء ، ٢٢/٣٦٧ ، ٣/٤٦٧ ، وتاريخ الإسلام ، وفيات سنة ٦٣٢هـ ، ص٩٩ .

(٢) الأعيان : ١/٣٩٢ .

(٣) المعجم المختص : ٤٣ ، ومعجم الشيوخ : ١/١٠٤ .

« المثقفين » ، الذين يظنون قائلها محباً لشيخ « أهل الحديث» في عصره ، وقد نفث فيها ما نفث .

قال الصفدي : « لم أجد عنده جمود المحدّثين ،

- ولا كَوْدَنة النقلة ، (الكودن : الفرس الهجين)

- بل هو فقيه النظر ،

- له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الأئمة ، والسلف ، وأرباب المقالات »!![1] .

دع ما فيها من شَين لأهل الحديث ، وانظر أسلوب التعالي فيها ، وقد مرّ بك أن للتاج السبكي « مساعدات » في تأليف « الأعيان » ، فإن لم يكن « ساعده » في ترجمة الذهبي ، فأين تراه فعل ؟ .

والمؤكد أن الذهبي حين مدح تلاميذه هؤلاء في معاجمه ، ما كان عالماً بدخلتهم نحوه ، ونحو شيخه أبي العباس ، بل ما يُظنّ أنهم أبدوا كُليمة سوء في ذلك بحضرته ، فإن من لم يسكت عن الردّ على كلامٍ جائر أو غير لائق ، قاله شيخهم « التقي » السبكي في ابن تيمية ، فأرسل إليه يعاتبه[2] ، لن يسكت من باب أولى على تلاميذه .

ومما يجدر بيانه هنا أن كُتب الصفدي : التي استدللتُ بما جاء فيها على موقفه من شيخ الإسلام ، إنما صُنّفتْ في الشهور الأخيرة من عمر الذهبي ، أو بعد وفاته ، مثل « الغيث المسجم » ، و« الوافي » و« الأعيان »[3]

---

(١) الأعيان : ٤/ ٢٩٠ ، والوافي : ٢/ ١١٥ .

(٢) انظر : ذيل طبقات الحنابلة : ٢/ ٣٩٢ ، والرد الوافر : ١٠٠ .

(٣) انظر تأليف الغيث المسجم : ٢/١١٣ ، والوافي (في غير ما موضع) ٢/ ٥٦ ، ١١/ ٢٨ ، ١٦/ ٨٣ ، وانظر مقدمة الأعيان .

و« التذكرة » ، وبه يمكن ـ أيضاً ـ تفسير سَبْق ذلك الثناء عليه[١] وليس مِنَ الخطأ على هذا القول : إنّ موقف الصفدي من شيخ الإسلام كان مضمراً في نفسه حين امتدحه شيخه ، والغالب على التلميذ التحفّظ حين يحاور شيخه من حديث يؤدي إلى غضبة الشيخ عليه ، وأحسب أن الصفدي ، وأمثاله من علية موظفي الدولة المملوكية ، كانوا في تقية مع شيخهم الذهبي يخشون قلمه ، مثلما كان هو معهم في تقية ، فقد كانت شيوخ الأشاعرة تعادي كل من عرفته سلفياً مجاهراً بسلفيته ، وهل كان إخفاء الذهبي للكتب التي ألفها في الاعتقاد السلفي ، مثل : « العلوّ للعلي الغفار » ، وكتاب « العرش » ، وغيرهما إلا خوفاً من فِتنهم ؟[٢] التي من أقلّها ما تعبّر عنه مصادر ذلك الزمان بـ« قطع الخبز » أي الراتب ، والمخصصات المالية[٣] .

إنه قصور علم البشر بمستقبل الأمور ، بل عدم العلم بها تماماً ، ولذلك مثال في كتاب الذهبي « المعجم المختص بالمحدثين » فإنه لما قال في المحدّث أبي عبد الله الدمشقي ثم الحلبي : « شابّ متيقّظ ، سمع وخرّج ، وكتب عني الكاشف ، ولد سنة عشر وسبعمئة[٤] وسمع من جماعة بحلب باعتناء أبيه ، وبدمشق من ابن أبي التائب ، وبنت صصرى » تحصّل لديه بعد مدة من الزمان ، زيادة علم عن المترجم له ، فما كان منه إلا أن أضاف في نهاية الترجمة كلمةَ جرحٍ رآها مناسبة فيه ، دون تغيير لما سبق ، فقال : « فيه نقصُ عدالة »[٥] ، ولا تفسير لتغير رأيه في الرجل أقوى من القول : إن عمل

---

(١) زغل العلم : ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المقفى الكبير : ٥/ ٢٢٤ ، والحظ أن الصفدي والسبكي ما أشارا إلى كتابيه المذكورين .

(٣) الأعيان : ٢/ ٦٦ .

(٤) وفي المصادر الأخرى : سنة ٧١٢هـ .

(٥) عرفنا أن هذا كان في (الإصدار الأول) من نقل ابن حجر للترجمة دون قوله « فيه =

المذكور كاتباً « من كتاب الحكم بحلب » ، كان وراء تلك الإضافة[١] .

كتب الإمام الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ ما كتب[٢] وهو ـ كما قلتُ ـ بشرٌ من البشر لا يعلم ما تأتي به الأيام في أناس أحياء ، لم تستقرّ ترجمتهم[٣] ، فلا يمتنع كون « الغلطة » في الثناء على الصفدي قد تكررت مثل تكرر شبيهها في مثال الكاتب المذكور من قريب .

لقد كان الذهبي ـ رحمه الله ـ ميالاً إلى الموادعة ، ولعل ذلك مما جُبل عليه ، فوق ما كان مضطراً إليه ، ألا ترى أنه لم يعتب على شيخ الإسلام خصلةً عتبه عليه أنْ كان حديداً في نقاش خصومه « ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة » ، وأنه « لو سلم من ذلك لكان أنفع للمخالفين » و أنه « لو لاطف الخصوم ،

= نقص عدالة« انظر إنباء الغمر : ١/ ١٦٥ .

(١) انظر ، الذيل على العبر ، للعراقي : ٤١٨/٢ .

(٢) حمل الثناء في الترجمة على إرادة الحثّ و« التشجيع » للصفدي ، والدفع به إلى المثابرة على طلب العلم ، لتتمكن تلك الأوصاف منه أمر وارد ، وإن كان فيها نوع مبالغة منه كأن الغاية من وراء ذلك إبراز الجوانب الأدبية الواعِدة في شابّ تأخر في « الطلَب » إلى ما بعد العشرين من عمره .

(٣) قال الذهبي كالمعترف بخطئه لروايته عمن لم يرض عنهم ، مثل الشاعر المترفض الهجاء : علي بن مظفر الوادعي : « الأديب العلامة المحدث. . . الكاتب الشاعر . . . ، وقال النظم الرائق. . . ، وتكلم الناس في سوء نحلته ، وكان يتهاون بالصلاة ، وما عليه أنس الحديث. . . » المعجم المختص ، ص ١٧٧ ، ومعجم الشيوخ : ٥٨/٢ ، وتذكرة الحفاظ : ٤/ ١٥٠٤ ، ومعرفة القراء الكبار : ٧٣٨/٢ ، وأعاد ذلك في (ذيل التاريخ) فقال : « وكان يخل بالصلاة ، نسأل الله العفو ، حملنا الشره على الأخذ عنه » ، قلت : وهذا يدل على أنه ـ غفر الله له ـ كان في شبابه مثل أصحابه من محدثي زمانه الذين : « لا يتوقفون في السماع ممن فيه روح!! » . انظر (الذيل) ص ١٤٠ ، ٢١٠ ، والأعيان : ٣/ ٥٧٤ ، وذكر ابن كثير أنه كان يلوذ بشيخ الإسلام ١٤/ ٨١ ، ولم يتضح لي سبب ذلك .

ورفق بهم ، ولزم المجاملة وحسن المكالمة. . . »[١] . نقلت لك هذا دليلاً على طبيعة الذهبي الخَلْقية ، أو رأيه الذي « تكوَّن » بسبب الاضطهاد الأشعري (مَنْ قال : هي محاكم التفتيش في تاريخنا ، ما أبعد النجعة) فاجتهد ، فرأى المداراة أوفق بعصره ، أما إن شئت أن تعرف رأي أبي العباس في ما دعاه إليه الذهبي ، حتى ظَنَّ الذهبي لكثرة ناصحيه بآرائهم في ذلك أنه مات وهو « لا يلوي على ناصح »[٢] ، فاقرأ بيانه عند قوله : « ما ذكرتم من لين الكلام ، والمخاطبة بالتي هي أحسن ، فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا ، لكن كل شيء في موضعه حسن. . . »[٣] .

كان للذهبي « حُسن ظنّ » ببعض تلاميذه ، ويُفهم أنه ربما نَقَل عنهم « معلومة » أو اعتمد أقوالهم في تراجم بعض معاصريه ، كما يستنتج من عبارة له في ترجمة رجل قال فيها : « . . . وأصحابنا يثنون عليه »[٤] ، وإنْ أثنوا جاز أن يثلبوا ، وهذا الثناء الذي رأيت في الصفدي ، قد يكون نتاج « ثناءات » أبلغها عنه ، مع ما يراه من حاله المتأدبة حين يزوره ، وما أطلع عليه من مصنفاته ، وما أسمعه من أشعاره ، وربما نُقلت إليه « معلومات » غير صحيحة ، فيستعجل ـ كما قال ابن الوردي ـ[٥] ويُثبتها في كتابه ، فيأتي محصَّلها أحياناً مِدحة بلا مَثنويَّةٍ ، كما في مثال الصفدي ، ويأتي بعضه مدحاً مشوباً بذمّ كما في مثال ترجمة الإمام العلامة ابن قيم الجوزية ، التي كانت ترجمته « كالحة » في أخفِّ تعبير ! ![٦] .

---

(١) تاريخ الاسلام (حوادث ٦٩٨هـ) ص٦١ ، ٦٢ ، والذيل عليه : ٢٦١ .

(٢) المعجم المختص : ٢٦ .

(٣) انظر بقية كلامه في الفتاوى ٣/ ٢٣٢ .

(٤) المعجم المختص : ٢٦٦ .

(٥) تاريخ ابن الوردي : ٢/ ٤٩٩ .

(٦) لا يدرى ما الذي جعل الذهبي ـ غفر الله له ـ يقول عن أنجب تلميذ لشيخ الإسلام=

كان الإمام الذهبي ممن يرجع إلى تصانيفه في التاريخ بالتنقيح والإضافة ، كلما اقتضت الحال ذلك ، فكان يُلحق عباراتٍ وجُملاً مناسبة فيها ؛ قال د. بشار عواد البغدادي ، في كلامه على (تاريخ الإسلام) : « ونسخة المؤلف هذه مليئة بالزيادات والإضافات التي كتبها الذهبي بخطه على حواشيها ، وفي الوريقات الطيارة (الجزازات) الكثيرة التي وضعها بين الأوراق ؛ ذلك أنه بقي يدقق في

= إنه : « معجب برأيه ، سيىء العقل جريء على الأمور ، غفر الله له » . انظر : صورة ترجمته في نسخة المعجم المختص ، وفيها إضافة من إضافات الذهبي في النسخة التي فاتت المصادر ، فلذلك خلت منها . وليُعلم أنَّ وحشةً ما طرأت على علاقة الإمامين الذهبي ، وابن القيم ، دليلها ما قاله الذهبي هنا ، ويشهد لذلك ندرة ذكر ابن القيم للذهبي في كتبه (انظر موضع ذلك وأسلوبه الذي كان يصفه بالحافظ فيه في « فوائد حديثية » ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، . . . ويفهم أن هذا في شباب ابن القيم ، ثم هجر اسمه إلا في مواضع انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية : ٢٣٢ ، و : زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ١٣٢) ، والحظ أسلوب الذهبي في : ذيل تاريخ الإسلام : ٢٦٥ ، وأقول : إن من وصايا العلماء ـ ومنهم الذهبي ـ لطلاب العلم ، أن لا يعبؤوا بكلام الأقران ، فتطبيقاً لذلك يقال : إننا نعرض عما تفرد الذهبي به من ثلب ابن القيم ، إعراضنا عما تفرد الحافظ ابن المحب بإدراج شيخه الحافظ الذهبي في كتابه (التذكرة في الضعفاء) انظر : توضيح المشتبه : ٤/ ٤٨ ، ومع هذا فإن في عبارة ابن الوردي في الذهبي شيء من الصحة ، فمؤاخذته محدّدة في اثنين : ١ـ استعجاله بترجمة أحياء مشهورين (قد يعني ابن القيم) ٢ـ اعتماده في تراجم أولئك المشهورين على تلاميذه (سماهم ابن الوردي : أحداثاً !) الذين في أنفسهم شيء على المترجم لهم . والحق إنّ كلام الذهبي في الأحياء ضروري للمؤرخ ، وبخاصة لإمام في الجرح والتعديل مثله ، وهل يفيد الباحث اليوم أكثر ما يفيد إلا من كلام من أرخ لمعاصريه ؟ ولكن غفر الله لابن الوردي ، هلا إذ انتقد الذهبي جاء بمثال يرفع الإبهام عن كلامه ، فها قد رأينا محققاً معروفاً يعجل في الحكم ويقول عن نقد ابن الوردي هذه « الجزئية» عند الذهبي : إنه نقد لا عبرة به !!

الكتاب ويضيف إليه منذ انتهائه منه سنة ٧١٤هـ وإلى آخر سني حياته »[١] .

ويفهم من مقدمة الأستاذ الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري على « ذيل التاريخ » تأكيد هذا المعنى ، من عادة الذهبي ، حين عدّ الذيل « مسودة » لم يجد الذهبي الوقت لإعادة النظر فيه بعد أن أضرّ ، وذلك لِلخَلل المشاهد في سنيّ الوفيات والحوادث ، مما لا يتفق ومنهج الذهبي الدقيق في (تاريخ الإسلام)[٢] .

والمفهوم من معجمي الذهبي ، ومن « مشاهدات » د٠محمد الهيلة ، في مقدمتَيْه عليهما أن مؤلفهما قد أجرى عليهما « تعديلات » بإضافة وحذف ، وذلك عندما قرئا عليه مرات ، فمن تلك القراءات عليه في كتاب (المعجم المختص) ما وقع في (سنة ٧٣٤هـ ، و٧٤١ هـ ، و٧٤٣ هـ ، و٧٤٤ هـ ، و٧٤٥هـ) وما وقفت على مرات ذلك في (معجم الشيوخ) ، غير أنه قريء عليه سنة ٧٤٥هـ[٣] .

لكن الأمر المهم في (معجم الشيوخ) هو ما أجراه فيه من تغيير ، حينما أمَرَ الناسخ (تلميذه) عبد الله بن أحمد الزرندي الشافعي (ت٧٤٩هـ)[٤] ، الذي قرأ عليه الكتاب سنة ٧٤٥هـ بإسقاط تراجم يُفهم من مقارنتها بعدد تراجم نسخة سنة ٧٢٧هـ ، أنهم كثير[٥] .

---

(١) مقدمة تاريخ الإسلام (الجزء الذي صدر قديماً) : ص ٣٤ .

(٢) ذيل تاريخ الإسلام : ص ٥ وانظر : مقدمة المحقق المؤرخ : د٠ عمر بن عبد السلام تدمري على مقدمة تحقيقه لتاريخ الإسلام .

(٣) المعجم المختص : مقدمة الناشر ، ومعجم الشيوخ : ٩ ، ١٠ .

(٤) الأعيان : ٢/ ٦٥٠ ، والدرر : ١/ ١٥١ ، فهو شافعي ، وليس كما نقل ناشر المعجم من الحنفية٠ .

(٥) انظر مقدمة : معجم الشيوخ ، ١/ ٩ .

قال الزرندي الناسخ في نهاية الكتاب : « . . . وأشار بإسقاط جماعة من المكتوبين على حواشي الأصل من أصحاب ابن البخاري (ت٦٩٠هـ) فلم يكتبوا هنا ، وما عليه مكتوب في الحواشي بخطي : وأصله بيد عمي ، فيكون سماعه من التبليغ الذي قبله إليه . . . . »[١] ، وكان خليل بن أيبك الصفدي من « المسْقَطِين » ، ولكن يبدو أن إسقاطه كان قبل تاريخ هذه النسخة (٧٤٥هـ) في نسخة قبلها هي التي ذكر أنها عند عمه !![٢] .

ويمكن القول : إن (المعجم المختص) بإضافاته التي زادها المؤلف لم تقع نسخة منها لا للحافظ ابن حجر ، ولا ابن قاضي شهبة ، ولا المقريزي ، ولا الولي العراقي[٣] ، ويحتمل أن السبب في ذلك تَرَحُّل أصل نسخة (د٠الهيلة) مع من ترحّل من تلاميذه إلى الهند ، حيث نسخهاـ بعد دهرـ الناسخ الهندي وأخواه ، ثم استقرت نسختهم في « المكتبة الناصرية » في (لنكو)[٤] ، وفقد أصلها .

---

(١) ما هو من أصحاب ابن البخاري ، فقد ولد بعد وفاته بسبع سنين تقريباً .

(٢) معجم الشيوخ : ٢/ ٤٢٩ .

(٣) أبقى فيمن أبقى الشاعر ابن نباتة ، ووصف شعره بأنه : « في الذروة« ٠وأبقى مسنداً معمّراً ، يخل بالصلاة « قليلا » ، عامياً ، عرياً من العلم ، هو : عيسى بن عبد الرحمن . انظر معجم الشيوخ : ٢/ ٢٧٨ ، ٨٥ ، انظر ذيل التاريخ : ١٦٣ .

(٤) قلت : من أدلة اختلاف نسخة ابن حجر من (المعجم المختص) ونقصها عن زيادات المؤلف ، زيادة في ترجمة (التاج السبكي) ليست في المطبوعة ، وما ذكرها من نقلها عن الذهبي سوى ابن حجر ، وهي قول الذهبي : « عُني بهذا الشأن » ، انظر : « ذيل التبيان لبديعة الزمان« : ٥٣ ، وقد لحظ ابن قاضي شهبة ، بعض هذه الفروق ، ولا أدري حين قال في ترجمة ابن رافع السلامي : « . . . وفي بعض نسخ المعجم المختص وصفه بالحافظ « أكانت من النسخ الأخيرة المزيدة للمعجم المختص ، أم هي عين التي نسخ منه الهنود نسختهم ؟ . طبقات الشافعية : ٣/ ١٢٥ ، وانظر مثالاً سبق عن الشاب المتيقظ الذي كتب عن الذهبي الكاشف في :=

ويحتمل أن يكون ورثة أو قرابة سعيد بن عبد الله الدهلي (دهلي المدينة المشهورة بالهند) الذي توفي بالطاعون سنة ٧٤١هـ ، من أخذها معهم ، فإنه ـ رحمه الله ـ واحد ممن قرأ (المعجم المختص) على الذهبي[١] ، أو تكون (النسخة) مما حمله عبد العزيز الأردبيلي معه إلى الهند ، فقد ذكر ابن بطوطة تلمذته على ابن تيمية ، والمزي ، والذهبي[٢] .

* * *

= الدرر (٢/٣٧) كيف أنها لم تحو الإضافة ، وانظر إنباء الغمر : ١/ ١٦٥ ، والمعجم المؤسس : ٢/٦١٣ ، وكذلك ابن قاضي شهبة في تاريخه : ٣ / ٤٩١ ، وهذا يؤكد أنهما ما رأيا النسخة المزيدة ، ومع كثرة ما نبه (د. الهيلة) في حواشي (المعجم المختص) من قوله : « نقل ابن حجر بعض هذه الترجمة» (المعجم المختص : ١٨ ، ١٩ ، ٢٩ إلخ) لم يذكر هذه الزيادة المهمة . وقد بدا أن نسخة المعجم التي كانت عند ابن حجر كانت في شعبان سنة ٧٤٠هـ (انظر ص ٤٧) وهو تاريخ مهم إذ هو قبل إمساك تنكز بأربعة أشهر تقريباً .

(١) انظر مقدمة : المعجم المختص ، حيث نقل المحقق الطباق الذي ذكره الناسخ الهندي . وقد أخبر الصفدي بتملكه نسخة (معجم شيوخ الذهبي) بخط مؤلفه ، فلعله (معجم كبير) غيره ، لأن عدد شيوخه فيه كما قال الصفدي (١٣٠٠) شيخ ، انظر : الأعيان : ٤/ ٢٩١ ، ونكت الهميان : ص ٢٤٣ ، وقد تلحظ أنه نقل بعض تراجم « الأعيان » من نسخة من المعجم المختص بدت أنها مما زاد فيها المؤلف ما زاده ، ولم أقف على ذكره لهذا المعجم باسمه المعروف « المختص » . قارن ما في تراجم المعجم المختص : ١٥٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ ، وترجمة الشاعر التركي ابن ألمى في معجميه : ص٧٢ ، ١/ ١٧٠ ، بمواضعها في الأعيان ، فمن المحتمل أن يسعى الصفدي في تكثير نسخ المعجم المختص الخالية من عبارة « اللهم تب علينا » ، وجعلها في مكتبات المدارس في الشام ومصر (واذكر ما فعل ابن بصخان بترجمته التي في « معرفة القراء الكبار»). .

(٢) المعجم المختص : المقدمة ، ص ١٠٤ ، والدرر : ٢/ ٨١ ، الأعيان : ٢/ ٤٠٨ .

« اللهم تُب علينا » ، من أدعية الذهبي وليست من الناسخ!!

كان من أسلوب الذهبي ـ رحمه الله ـ في كتبه الدعاء بألفاظ مختلفة في ختام بعض تراجمه وكلماته ، فيقول مثلاً : « نسأل الله العفو » ، و« نسأل الله العافية » ، و« نسأل الله المسامحة » ، و« نسأل الله الصفح » ، و« نسأل الله السلامة » ، و« نسأل الله التوفيق والإخلاص »... [١] .

وقد وردت في النسخة التي اعتمدها(د . محمد الهيلة) لكتاب المعجم المختصّ كلمة : « اللهم تب علينا » ملحقة بترجمة الصفدي ، بدا أنها مما أمر الحافظ الذهبي تلميذه (الناسخ) بكتابتها بعد قوله في الترجمة : « وله كتب وتواليف وبلاغة » ، فظنّ المحقق (د . الهيلة) أنها مقحمة من الناسخ[٢] ،

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : ٩/ ١٤٤ ، ١٤/ ٥٢٥ ، ١٨/ ٥٨٥ ، ٤/ ٣٧٥ ، ٨/ ١١٣ ، ١٥/ ٤٦٥ ، وانظر : تاريخ الإسلام : ٦٩١هـ ـ ٧٠٠هـ ص ٢٠٠ ، ٤٠١ ، وللدكتور الفاضل (جمال عزون) في هذا الموضوع لفتة نبهني لها ، ودلني على مقال قديم كتبه حول أدعية الذهبي في « ملحق التراث » بجريدة المدينة ، فله الشكر .

(٢) واسمه : محمد بن رستم ، المعتمد خان الهندي ، (البدخشي) ، قال مؤرخ الهند عبد الحي الحسني : « العالم المحدث... ، أحد الرجال المشهورين في الحديث والرجال . وصنف « رد البدعة ومعتقد أهل السنة » فأعطاه ثلاثمئة منصباً... » وكان حياً سنة ١١٤٦هـ ، انظر : نزهة الخواطر : ٦/ ٢٦٧ ، ولا يبلغ الجهل بناسخ يكتب العربية ، ثم لا يميز بين : (اللهم تب عليّ) ، و(اللهم : تب علينا) وأقول : إن كان ثمة من أقحم في هذه الترجمة شيء فهو (ابن تغري بردي)في (المنهل) ، لأنه=

ولم يوضح كيف تكون من الناسخ عند هذه الترجمة ؟ إذ كان منتظراً منه أن يذكر وجه « إقحامه » إياها هنالك ؟ ومن طبيعة تعليق المعلقين على الكتب والمخطوطات أن يُظهروا وجه اعتراضهم على الجملة أو الكلمة التي لم تعجبهم ، ومَنْ عرف أسلوب الذهبي في نقد بعض معاصريه الذين يُخْطِر نقده لهم بِضُرّ يلحقه ، فيلجأ إلى عبارات ترمز بما يريد من ذمّ ، ولها مخرج وتأويل ، لم ينكر ما أقول ، ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمة : محمد المرشدي (ت٧٣٧هـ) الصوفي المعظم عند أمراء المماليك ، وعند الصفدي وابن السراج الدمشقي ، واليافعي وأمثالهم ، بعد أن قال عنه ما يفهم منه أن المترجم له من المحتالين بيد أن ذلك في غير شدة ، لكنه ختم ترجمته باستفهام يلحق المترجم له بالمذمومين من زيوف الصوفية حين قال : « . . وما أدري ما أقول؟ »[(١)] .

وقد تكلم على أسلوبه « التَّحَرّزيّ » هذا في النقد تلميذ تلاميذه ، أعني الحافظ المؤرخ ابن حجر ، في ترجمة القاضي ذي المكانة العالية عند السلطان الناصر بن قلاوون ، جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ) وذلك عند قول الذهبي فيها : « . . . وما كل ما يُعلم يقال ، فالأمر شديد والرشاء قبيح »[(٢)] ،

= زعم في كلمات أوردها أنها منقولة من (المعجم المختص) ، وليست في طبعة (الهيلة) ولا المصادر التي نقلت عن المعجم ، والأشبه أنها من وهم صاحب المنهل(وكان مغرماً بالصفدي) وخلطه ، وتعبيره الذي لا يطابق الواقع (كما وصفه السخاوي) ، فقد زعم أن الذهبي قال : « كان. . . صادقاً ماهراً في صناعة الإنشاء ، قدوة في فن الأدب ، حسن الأخلاق والمحاضرة رحلة الطالبين. . . وله نظم رائق ونثر فائق » . انظر « المعجم المختص« ص٩٢ ، وترجمة الصفدي في المنهل الصافي : ٥/ ٢٤٥ .

(١) ذيل تاريخ الإسلام ١٧٥ ، ٣٣٨ ، وانظر ترجمة المرشدي في الأعيان ٤/ ٥٣٥ ، وتشويق الأرواح : الورقة ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(٢) ذيل التاريخ : ٣٥٤ .

فعلق ابن حجر قائلاً : « هذا كلام الذهبي ، على عادته في الرمز إلى الحطّ على من يخشى غائلة التصريح فيه »[١] .

وربما اعترف الذهبي بمحاباته ، وإغضائه عن « أمور » لبعض من ترجم لهم في المعجم المختص ، فقال في المحاباة : « . . . خرج له البرزالي ، وابن كثير ، وما أدري ما أقول ؟ فالله يسامحه ، وإن أسكت فلسان الكون ناطق بما ثمّ من رشاوى . . . ، وكان محسناً إلي ، فلعلي حابيته ، رحمه الله »[٢] .

أما إغضاؤه عن بعض « الأمور » للمترجم له ، فمثل ما كتبه تعليقاً على شتائم ابن بصخان المقريء (ت٧٤٣هـ) فيه ، عندما قال : « أنا أعلم من أين أُتيت ، فإنني زدته ـ والله ـ مالا يستحقه ، وأغضيت عن أمور مكشوفة ، فلنا ، وله وقفة بين يدي رب العالمين »[٣] .

لا يُفهم من هذا إلا أن الذهبي كان حين يكتب تاريخ عصره ومجتمعه ، إنسان كأكثر المؤرخين ، يدفع عن نفسه ـ كما قال ابن حجر ـ غائلة من ذمهم ، ومن لم يرضوا وصفه لهم بما فيهم ، من أولي الطَّول والمقدرة ، في زمن

---

(١) الدرر : ٤/ ٤ ، قلت : إنّ كلام الحافظ ابن حجر هذا يجدر أن يتأمل جيداً ، فقد يحتمل تفسير قسوة ألفاظ الذهبي في (زغل العلم) في شيخ الإسلام ، بخشية غائلة الأشاعرة أيضاً ، حين عرفوه سلفياً مادحاً ابن تيمية ، أقول : ربما صرف كلماته (التي بدت وكأنها مما أملاه فإن أسلوبها نازل) تحرّزاً من تهمة يلحقونها به ، ألا تراه في نقده القليل لم يذمه من جهة ذمهم ، (أعني التجسيم المفترى عليه) وإنما درأ عن نفسه بمجملات القول مثل الكلمة التي في « ذيل التاريخ » من قوله : « مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية » ، وما مثّل على(المسائل الأصلية) بواحدة !!

(٢) المعجم المختص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) معرفة القراء الكبار : ٢/ ٧٤٥ ، وذكر ابن حجر أنه محى اسمه من كتاب القراء الكبار ، وهو مثبت في المطبوعة . الدرر : ٣/ ١٨٩ .

يعسف « مماليكه » وملوكه بالناس عسفاً ، ويحكم قضاته المالكية بضرب العنق عند « تَوتَّر » أعصابهم[١] .

كان الذهبي ـ رحمه الله ـ من المؤرخين الذين أبغضوا الظالمين وأعوانهم ، ولكن من غير أن يلقي بنفسه إلى التهلكة ، ولقد أصابه من رشاش ظلمهم ما حكاه في ترجمة الوزير ابن السلعوس (ت٦٩٣هـ) قال : « . . . وذهبتُ إليه مع الذهبيين ليحكم فيهم ، فأذاقنا ذُلاً وقهراً »[٢] ، ومن شواهد بغضه الظلم وأهله قوله عن أحد الكتَّاب ، ويعرف بنجم الدين بن صدقة (ت٦٩٦هـ) : « خَدَم في جهات الظلمة »[٣] ، ثم سكت عن تلك الجهات ، وما أراهم إلا مُتوثِّبة أمراء المماليك ، الذين تقاتلوا لاغتصاب عرش أبناء السلطان قلاوون : الأشرف خليل ، وأخيه الناصر محمد .

أما تجريحه لِخُدَّام المُغل ، من أمثال ابن الفوطي (ت٧٢٣هـ) الذي سماه « مؤرخ الدنيا» لسعة علمه ، فهو أشدّ لكون المخدوم أظلم وأطغى ، فقال فيه : « لم يكن بالثبت فيما يترجمه ، ولا يتورع في مدح الفجار . . . »[٤] ، يعني ـ والله أعلم ـ مدحه لهم ، وقد كان في السكوت مندوحة .

وانظر كيف لا يترك ذكر ما يشين المترجم إذا كان فيه تعاون معهم ، وذلك في قوله عن أحدهم : « سمعنا منه أحاديث من جزء ابن عرفة ، على بطء لأنه

---

(١) من أمثلة ذلك إرادة قاضي المالكية سفك دم القاضي بهاء الدين السبكي ـ رحمه الله ـ لأنه قال كلمة « كفر » في نظر المتعصبة ، أتدرون ما قال ؟ قال له أثناء حواره معه : « لو كان مالك حياً لناظرته في هذه المسألة! » . انظر : درر العقود الفريدة : ٢٥٣/٣ .

(٢) تاريخ الإسلام : ص ١٩٩ .

(٣) تاريخ الإسلام : ص ٣٩٦ ، وانظر ما عبر به من كلمات في قضاة الجور والارتشاء . ذيل التاريخ : ص ٢٦٥ .

(٤) المعجم المختص : ١٤٤ .

كان من أعوان المكَسَة . . . . » ، ويمدح أحد القضاة إذ تَنَزَّه عن مخالطتهم ، فقال : « فأعجبني فَقْره ، و انجماعه عن متوليها » ، وقوله عن خطيب بالعقيبة ، وناظر جامع دمشق : « وكان ينظر في ديوان النائب ، ويظلم »[١] .

ويُفهم من مصادر ذلك العهد أن (ديوان دمشق)كان سيء السمعة ، فقد جاء في « أعيان العصر » ، أن فساداً ما كان مستشرياً فيه في عهد تنكز الذي استمر قريباً من ثلاثين سنة ، فهذا جمال الدين بن غانم ، كاتب الإنشاء (٧٤٤هـ) كتب إلى الصفدي وقد دخل الأخير إلى الديوان :

يقول جماعة الديوان فيه فسادٌ لا يُزال ولا يُزاحُ
فقلتُ فساده سيزول عما قليل إذ بدا فيه الصلاح

فأجابه الصفدي :

هويتُ جماعة الديوان دهراً فلما ضمنا بدمشق مغنى
نظرتُ إليهم نظر انتقاد فكنتَ جمالهم لفظاً ومعنى[٢]

وقال صديقه القاضي تاج الدين السبكي في كلامه على وظيفة « كاتب السرّ » و« الموقّع » ، قال : « . . . فعلى كاتب السرّ التلطف . . . ، وإلا فمتى ظلم الملك واحداً لعدم فهمه ، وكان كاتب السر هو الذي قرأ عليه القصة فيها كان شريكاً له ، أو مستبداً عنه بالظلم . . . ، وأن يحترز من الكتابة في قطع الأرزاق ، فقلما أفلح كاتبه » .

أما وظيفة « الموقّع » ، فقال عنها : « وعليهم الرفق بالرعية فيما يكتبونه ، والتخفيف من التشديدات التي يؤمرون بكتابتها ، ولا يسوغ الأمر بها فإن كان لا يقدر على التخفيف ، فلا أقلّ من ألا يزيد الطين بلّة ويسدد ، فلقد بلغني أن

---

(١) معجم الشيوخ : ١/١٠٧، ٤٩، ١١١ .
(٢) الأعيان : ٢/٧٠٢ .

بعض الملوك قال لموقّع[١] : اكتب إلى فلان بالحضور . فأبرق بالكتابة وأرعد ، وقعقع في العبارة . فلما وصل إليه الكتاب أرعده ذلك بحيث وضعت امرأته ، وكانت حاملا ، وأرمى هو مصارينه من الخوف . ولذلك قال فيهم بعض الشعراء :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضبٍ ثـم استمـدوا بهـا مـاء المنيـاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مـالا يُنـال بحـدّ المشـرفيـاتِ[٢]

ولا يُظن أن حال أكثر كتاب الديوان في عصره تختلف كثيراً عن حال ذاك الذي نقل الصفدي وصفه ، فقال : « كتب بعض الكتاب : وصار كاتب الديوان أفرغ من حجّام (ساباط) ، وحسبك ـ أيدك الله ـ أن كاتب الديوان في هذا الوقت شيخ كان يخلفني ، ويخلف من كان يلي الديوان قبلي ، يُعرف : بابن نوح ، حسن الشيبة ، عظيم الهامة ، كثير الصمت . لو رأيته لقلت : هذا نوح النبي ﷺ سمتاً ووقاراً ، ليس له عمل خلف سلّته إلا صيد الذّبان ، فهو أعلم خلق الله بأجناسها ، إذا مرّ به ذباب يطير عرفه بطيرانه قبل أن يسقط . . . »!! (التذكرة ، جـ ٢٨، الورقة ٢، ٣)

قلت : من السذاجة الظنّ أن الصفدي لم يكتب « لتنكز » أو لغيره شيئاً مما عابه السبكي ، وأبغضه الذهبي ، أو أنه لم يعش أوقات الفراغ الطويلة في (الديوان) وإن كنت لا أقول وصاد فيها الذبّان!! .

والملحوظ أن تعيين الصفدي في ديوان دمشق كان في ربيع الأول سنة ٧٣١هـ ، وإخراج الذهبي للمعجم المختص كان في رمضان منه بغير تلك الإضافة ، ويفهم من نسخة لـ(تاريخ الإسلام) عليها خطه ، أنه تردد على

---

(١) يحتمل أنه : كمال الدين ، محمد بن أحمد (ت ٧٦٢ هـ) انظر : الأعيان : ٤/ ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٢) معيد النعم ومبيد النقم : ٣٠ ، ٣١ .

مجالس الذهبي في سنة ٧٣٥هـ ، وفي سنة ٧٤٠هـ ، ومعه مملوكه التركي « طيدمر » ، ثم لم أقف على تاريخ لمثل ذلك بعد استئصال تنكز ، وإهلاكه بالسمّ (الاستئصال والإهلاك تعبيران للذهبي) ، و« توسيط » بعض أعوانه ، وعزل المقربين منه ، وقد كان الصفدي ممن عزل[١] .

لقد كان تنكز نموذجاً للظلمة من المماليك ، ولا أدلّ على ذلك مما قاله « خليله » الصفدي فيه من كونه « إذا غضب لا سبيل إلى رضاه ، ولا أن يحصل منه عفوّ ، وإذا بَطَشَ بطشَ بطْشَ الجبارين »[٢] ، ومع ما قاله هنا فقد أراد أن يشوه حقائق التاريخ ، فأكثر من مديحه (ولك أن تعدّ إصراره على مدح الظالم تنظيفاً لسمعة مَن خدمه !!) وبذل جهده في تعفية مظالمه . انظر أول عبارة في ترجمته له قال : « تنكز ، الأمير الكبير المهيب العادل الفريد . . » ، ثم لا يدع اسم « المرحوم تنكز » (هذا تعبيره) دون أن يتبعه بترحم عليه ـ في الغالب ـ[٣] وأما الثناء بنظمه عليه فكثير .

لكنه لم يقدر على تحريف (الواقع) بمخالفة الذهبي في جميع ما أخبر به من فساد تنكز وظلمه ، وجمعه الأموال الطائلة ، فذكر ثروته « القارونية »[٤] ، وأنه : « كان ذا سطوة ، وهيبة ، وزعارة ، وإقدام على الدماء ، وله نفس سبُعِية ، وفيه عتوٌّ ، وحرص مع ديانة في الجملة » وإن خالف حكمه الأساس

---

(١) المقفى الكبير : ٣/ ٧٦٨ .
(٢) الأعيان : ٢/ ١٢١ .
(٣) كان « تنكز » ينصر خصوم شيخ الإسلام عليه ، مثل الصفي الهندي ويعظمه و« يعتقده » . الطبقات : ٩/ ١٦٤ ، وإنما منع « تنكز » من الإمعان في أذى أبي العباس مكانته من الناصر ، ولكنه تسلّط على تلاميذه . انظر شهادة مخالف لشيخ الإسلام (أعني ابن بطوطة) في كونه معظماً عند الدماشقة : الرحلة ، ص ١١٢ . انظر موضع قوله : « المرحوم تنكز » ، في الأعيان : ١/ ١٨٤ .
(٤) الأعيان : ٢/ ١٢٧ ، وتاريخ ابن الوردي : ٢/ ٤٧١ .

من أنه كان : « سيىء الرأي ، لا يصلح لسياسة الرعية ، بل هو حطَمةٌ ، غشمة ، جبار ، يخافه العدوُّ والصديق » ، وجرحه بالقول إنه : « أكثر من سماع الغناء ، وشُرب القِمِزْ (لبن الخيل إذا تخمَّر)[١] ، وعمل القبائح . . . »[٢] .

وليس ثمة ما يحيل كون الصفدي من خواص تنكز ، لا أقول بالضرورة : أنه من خواصِّ مجالس عشرته ولهوه ، بل يُفهم أن له مجالس « ثقافية » سمع فيها بعض العلماء[٣] ، ويحضرني مثال من عهد المماليك الإمام العيني مع إدراكنا للفرق الكبير بين الشخصيتين الذي كانت له مجالس مع بعض سلاطين المماليك كان يقرأ على أحدهم من تاريخه الذي جمعه ، ويترجمه بالتركية[٤] .

---

(١) وكان شيخ الإسلام يجيب من سأله عن المسكرات من غير خمر العنب ، ومنها القمز بأن ما أسكر كثيره ، فقليله حرام . مجموع الفتاوى : ٣٤/ ١٩٣ .

(٢) ذيل تاريخ الإسلام : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، قلت : من ظلمه وبطشه ما حكاه الصفدي من أنه أمر خطاطاً يعرف بابن خطيب بعلبك (ت٧٣٥هـ) بنسخ « البخاري » له وأمهله سنة ، فلما حضر جاء بمجلد واحد منه ، فرماه تنكز على الأرض وضرب الخطاط ضرباً مبرحاً ، وأخبر ابن حجر أنه رأى النسخة وبدا له أنه كان قد أكملها ، ومدح اتقانها. الدرر : ٤/ ٢٠٥ ، و الأعيان : ٥/ ٤٠٨ ، ومع هذا قال فيه الصفدي : « ولم يرَ الناس أعفّ من يده ولا من فرجه ، ولا شاهدوا شمس عدل ، نزلت أحسن من برجه » ، وبالغ فقال : .

إلى دمشق نقلوا تنكزا ... فيالها من آية ظاهره
في جنة الدنيا له جثة ... ونفْسه في جنة الآخره

الأعيان : ٢/ ١١٧ ، ١٣٧ ، ٥٩٩ ، وقال في تذكرته (الجزء ٤٨ الورقة ١٨٣) عند لكلام على وّلاة الشام :

ثمَّ أتى من كان نِعْم النائب ... تنكِزُ جادتْ قبره سحائب

(٣) ذكر الصفدي أن تنكز سمع صحيح البخاري ، ومسلم ، وكتاب معاني الآثار للطحاوي ، وحدّث بثلاثيات البخاري . الأعيان : ٢/ ١١٨ .

(٤) الضوء اللامع : ١٠/ ١٣٢ .

وقد يلحظ تهرب الصفدي من تسجيل ما عرف من حال الأمير تنكز ستراً عليه ، بيد أن حب السَّتر هذا يَقِلّ في ترجمة أمير دافع عن ابن تيمية وساعد تلاميذه ، مثال ذلك ما قال في الأمير جنكلي ، غفر الله له : « . . . وكان يميل إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية ويترشف كلامه ، وينتشي بذكره ، لو كنت أعلم أنه يتناول المدامة ، وينفر عمن ينحرف عنه ، ويوليه الملامة ، ويوفر العطاء لمن قلده ، ويُسني الهبات لمن قيده كلامه وجلده ، إذ كتبه وجلده »[١] .

كانت « قبائح » تنكز تحمل معه في رحلات لهوه التي سُمِّيت صيداً ، فقد كان يحمل معه مغنياً يُطربه ، قال الصفدي عن هذا المغني : « . . . كان يسافر مع الأمير سيف الدين تنكز في الصيود ، وتضمُّنا وإياه تلك الأغوار والنجود ، فننظم له المقطوع الشعر ، ونلقيه عليه بما يراه من السّعر ، فيصنع له في الوقت لحناً ألذُّ عند النحوي من إعرابٍ لا يرى فيه لحناً ، كأن الله سخر له هذا الأمر ، وخلقه وِفْقَ ذوقه ! ![٢] وجعل مَن تقدّمه تحتَ تختٍ هو وحده من فوقه ، فكم له ساذخ (كذا) كله طراز ، وكم له من قول ما لحقيقة أحد إليه مجاز »! ! ثم ذكر رثاء له في هذا المغني .

فهذه مجالس اللهو والعربدة وما يتضمن ذلك من شرب تنكز ، وحاشيته للمسكر (القمز) في تلك « الصيود » ، حضرها الصفدي ، ثم لا يُعلم ما وراء ذلك[٣] .

---

(١) الأعيان : ٢/ ١٦٤ ، قلت : وكذلك كان ابن السراج الدمشقي ، عدوّ شيخ الإسلام ابن تيمية ، حين ذكر أمير قرية « قطنا » ، وهو من محبي ابن تيمية ، لم ينس أن يذكر أنه « كان يعاني شرب المسكر » ، تفاح الأرواح : نسخة برلين ، الورقة ١٠٣ .

(٢) كلام سوقي جاهل ، لا يليق بالمسلم التفوه به .

(٣) الأعيان : ٥/ ٢٥٥ ، ٣/ ٧١ ، ٢/ ١٦١ ، وابن الجزري : ٢/ ١٢٣ ، ١٠٥ ، ١٩٤ .

ومن إساءات الحافظ ابن كيلكلدي العلائي لنفسه ولشيخه الذهبي ـ وكان في غنى عن ذلك ـ تعليقه على ترجمة الذهبي لـ « تنكز » ، فقد علّق في حاشية « ذيل تاريخ الإسلام » على ترجمة « تنكز » عائباً ومتهجماً ، فقال : لقد بالغ المصنف وتجاوز الحدّ في ترجمه تنكز ، وأين مثله ؟!! وأعرض عن محاسنه الطافحة ، من العدل ، وقمع ، وكفّ الأيدي عن الفساد . . . ، ذنب تنكز أنه كان يحطّ كثيراً على ابن تيمية ، وفي هذه الإشارة كفاية »[١] ، قال أبو الفضل : نعم ، تكفي إشارتك أيضاً لإظهار مكانة « سَبُعِيّ » الأخلاق هذا ، عند الأشاعرة !![٢] .

وقد ردّ عليه ابن حجر العسقلاني ، فقال : « قلتُ قوله : إن الذهبي أعرض عن محاسن تنكز ، ليس بصحيح ، فإنه ذكر منها الكثير ، إلا أنه بالغ في معايبه ، والله المستعان »[٣] .

---

(١) هذا الانتقاد يردُّه التاريخ على المنتقد ، ألم يكن علم الدين أرجواش (ت٧٠١هـ) مطيعاً لابن تيمية ، غير مبغض له في فتنة غازان ؟ بلى ، ومع هذا وصفه الذهبي بما فيه بعد إشادة بموقفه في الصمود في قلعة دمشق فقال : « على عسف فيه وظلم » (ذيل التاريخ : ٢٠) ثم يقال : ألا يعدّ هذا « الحطّ الكثير » في شيخ الإسلام ، من « تنكِز » شارب « القِمِز » من الذنب عند ابن كيكلدي ؟ .

(٢) الطبقات : ١٠/ ٣٦ ، وانظر ٢/ ١٣ ، ٣/ ١٣٣ ، قال السبكي : إنه قرأ كلاماً للعلائي بخطه ، فيه تعظيم طويل لعقيدة « المرشدة» وإزراء بالذهبي وأهل العلم الذين قال : إنها « مضلة » ، ٨/ ١٨٥ ، وانظر ٩/ ١٩٢ . ولا يُدرى لعل الله استجاب دعاء الذهبي في العلائي حين دعا قائلاً : « والله يصلحه ، آمين » . معجم الشيوخ : ١/ ٢٢٤ .

(٣) الدرر : ٢/ ٣١٢ ، وغفر الله للحافظ ابن حجر ، فإنه لا يبدو في الترجمة مبالغة من الذهبي في الذم ، فإنه ذكر « إيجابياته » ، أوَ حكايته الواقع مأخذ عليه ؟! نعم ، تكون مبالغة عند أمثال ابن بطوطة ، فإنه قال عن تنكز : « وكان من خيار الأمراء وصلحائهم »!! انظر : الرحلة ص ١١٣ .

ثم حلّت نكبة الناصر به ، فنكّل به وصادره ثم قتله ، وكان قد غضب عليه لأمور منها : قتل طائفة من النصارى بسبب حريق دمشق ، وأخذ أموالهم ، وكان السلطان الناصر قد بيّن له أن ظلمه ذلك « يؤدي إلى فساد كبير على المسلمين في بلاد الفرنج » ، وأمره أن يرسل أموالهم إليه ، فلم يفعل[(١)] ثم بلغه أنه على أنْ يتمّرد عليه ، أو أنه لاحقٌ بالمغل ، واستبعد الذهبي ذلك ، وذكر أنه لا يجيء منه سلطان أبداً ، لبخله وحرصه ، ولعدم وُدّه للأمراء ، وغاية ما كان عزم عليه عنده الفرار إلى قلعة : « جَعْبر » (في شمال سورية) أو غيرها[(٢)] .

وقد شملت غضبة السلطان الناصر على « تنكز » ، كل من كان من جهته ، وجماعته[(٣)] ، وقد عرفنا أن الذي نال الصفدي من ذلك العزل ، فكانت « مساعدات » التاج السبكي التي تقدَّم ذكرها ، ردّته إلى « الوظيفة » ، وإنك لتقرأ حنوَّ الصفدي على « تنكز » ، وحنينه وحبه لعهده في مصنفاته وشعره ، انظر إليه كيف يفلتُ منه تعبير يفهم منه استنكاره « القضاء » تنكز ، حين قال عن اعتقاله إنه كان « شُغلاً مشؤوماً » (و سماه الذهبي استئصالاً كما مرّ بك) بل وأظهر غضبه على الناصر بن قلاوون ـ بعد وفاته ـ بقوله : « وعند الله تجتمع الخصوم » ، وقال : « فيا رَزِيّة حلّت بأهل دمشق ، لقد تأسفوا عليه ، ويا طول أسَفِهم »!![(٤)] .

عوداً إلى جملة الذهبي الدعائية : « اللهم تب علينا » ، فأقول : إنّ إيذانها بالتراجع عن الثناء على الصفدي في القوة كما رأيت ، وأما إبقاؤه الترجمة على

---

(١) ابن قاضي شهبة : ٢/١١٧ ، ١١٨ ، والمقفى الكبير : ٢/ ٦١٥ .
(٢) ذيل تاريخ الإسلام : ٣٧٩ .
(٣) الأعيان : ٢/ ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٥٨٨ .
(٤) تحفة ذوي الألباب : ٥٢٣ .

ما هي عليه دون تعديل ، أو تفصيلِ سببٍ لتراجعه ، فيحمل الأمر فيه على عادته في تراجمه من معاصريه ، التي أشبهت هذه في الإلحاق ، وأما تركه التفصيل ، فاحتراز من احترازاته ، فإن احتمال عودة الصفدي في مستقبل الأيام إلى منصب يحسب له في الحسبان وارد من الاحتمالات ، فإن صداقات الصفدي القديمة ، وتُركيَّة محتدِه مظنة ذلك [1] .

---

(١) ولعل من دواعي عدم تغييره للمعلومة السابقة ، كون كتبه سريعة الانتشار ـ بمنظور عهدهم ـ فكانت سرعان ما تنسخ وتطير شرقاً وغرباً ، أو بتعبير المصدر الذي أخبر عنها بالقول : « سار بجملة منها الركبان ، في أقطار البلدان » ، فأن تكون الإضافة ـ على هذا ـ قليلة أنسب وأوفق. ذيل تذكرة الحفاظ : ص ٣٦ ، وهذا ما عرفه الذهبي عن كتبه حين قال في تواضع العلماء في ترجمة نفسه : « وجمع تواليف ، يقال مفيدة . . . » المعجم المختص : ٩٧ ، أما أمثلة تركه تعديل هذه التراجم ، فمثل قوله عن البرزالي : « فالله يلهمه رشده ويمدّ في عمره . . . ، توفي بخليص في ثالث ذي الحجة . . . » ، وقوله عن تلميذ من تلامذته : « . . . ولئن لازم العلم ليسودنّ » ، ثم قال : « توفي غريباً بحلب . . . » ، وقوله في ترجمة ابن سيد الناس : « . . . جالسته وسمعت بقراءته وأجازني مروياته . . والله يصلحه وإياي » ، وقال في أخرى : « والله يبارك في عمره « ثم قال : « ومات فجأة في.. « انظر : المعجم المختص : ص ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ومعجم الشيوخ : ٣١٦/١ ، ١١٦/٢ ، ١٤٢ ، ومثال آخر في تذييله على كتابه « دول الإسلام » ، فقد كان الداعي معقولاً وممكناً لتعديل جملة دعائية في الخبر ، وذلك في حوادث سنة ٧٤١هـ بعد قوله : « وفي يوم الأربعاء ثامن عشرين (لعلها كتبت : عِشريّ) ذي الحجة وردت الأخبار بوفاة . . . » يعني السلطان الناصر ، ثم ذكر تولي ولده الملقب بالمنصور ، فقال : « وضربت البشائر له في الدنيا ، جعل الله وجهه مباركاً على المسلمين ، آمين » ، ثم كتب بعد سطور قائلاً : « وفي شهر صفر تواترت الأخبار بفساد السلطان الملك المنصور ، وشربه الخمور ، حتى قيل : إنه جامع زوجات أبيه ـ ثبت الله إيماننا ـ ثم خلع . . . » ، فقد ترى الفاصل بين الخبرين قصيراً ، مَوضِعاً وزمناً ، ومع هذا ترك ما كتبه من قوله : « جعل الله وجهه مباركاً . . . » ، والله أعلم بما جرى .
انظر : دول الإسلام : ٢٨٧/٢ ، ٢٨٨ .

وفيما نقله الصفدي عن مرض الذهبي في عينيه حتى أُضِرّ ما يقوي ما أذهب إليه ، ولا يخلو من موضع تأمل .

قال الصفدي : « . . . وكان قد أضرّ ـ رحمه الله تعالى ـ قبل موته بأربع سنين أو أكثر في عينيه . فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له : لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك ، ويقول : ليس هذا بماء ، وأنا أعرف بنفسي ، لأنني ما زال بصري ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه »[١] .

قلت : لم أقف فيما بين يدي من المصادر « المعاصرة » للإمام الذهبي ، التي ترجمت له ، من ذكر غضبه وتأذيه من الاقتراح الطّبيّ من بعض عُوّده ، سوى الصفدي ، فهي روايته وحده ، فالقول : إنها مما اقترحه الصفدي عليه في زورة من زوراته إياه لا يبدو بعيداً ، وهذا تفسير معقول لما كنت أعجب له فخالفني قائلاً : ما غضب الذهبي ـ رحمه الله ـ من ذلك ، وهو مِنْ طِبّ ذلك الزمان ؟[٢] حتى لاح لي أنها غضبة على شخص المقترِح ، لا من اقتراحه ؟ وإنّ عبارته المغضبة : « أنا أعرف بنفسي » لشاهد ذلك .

ولأمرٍ ما امتنع الصفدي ، البعيد عن التواضع و الحريص على ذكر مدائح كبار شيوخه فيه ، ممن هم دون الذهبي ، عن نقل عبارة من عبارات « المعجم المختص » فيه أو الإشارة إليها[٣] ، كأنه علم بالذي أذهب « مفعولها » ، أعني

---

(١) نكت الهميان : ٢٤٢ ، والأعيان : ٤/ ٢٩٠ .

(٢) انظر في كتاب مؤلف في طب العيون في عصرهما : نور العيون وجامع الفنون : ص٤٠٦ ـ ٤٣٠ .

(٣) قد كان معاصرو الذهبي من الأعلام على ذلك الحرص ، حتى من كان مهيباً وقوراً ، شامخ الأنف ، له ناموس وتعدد ، مثل ابن بصخان (الدرر : ٣/ ١٨٩) فإنه لم يتمالك نفسه حين علم أن الذهبي كتب (طبقات القراء) أن يطلب النظر فيها ليقف على ما قال الذهبي فيه ، فقال لحامل نسخة المؤلف : « أرني حتى أبصر =

الدعوة الملحقة بترجمته : « اللهم تب علينا » ، ويعضد ما أقول سجعاته هذه : « وأضرّ قبل موته بسنوات ، وحصل للناس بذلك ، في تلك الحال هفوات !! ولم يزل على حاله إلى أن أصبح الذهبي وقد ذهب ، ونهب الأجل عمره ما وهب »[١] والله أعلم .

ومِن عَجَبِ الزمان إذا اعتبرنا « خليل » ما يجي منه صديقُ

(ابن نباته المصري)

* * *

= ترجمتي »!! غاية النهاية : ٢/ ٥٩ ، ثم كان منه ما دلّ أنه لا يحسن التفكير السليم ، وأنه مقذع السباب إذا سبّ .

(١) الأعيان : ٢٨٨/٤ .

الخاتمة

أُجْمِل لك الرأي الذي خلصتُ إليه بالقول : إنّ خليل بن أيبك الصفدي كان « مرآة » لأعداء شيخ الإسلام ابن تيمية ، قد « انعكست » عليه من « فيوضات » خصوم (النقل والعقل) كلّ شنعاء مُظلِمة ، افتروها على رجل الإصلاح ابن تيمية ، من كلمات : « الاستخفاف به ، والازدراء بفضله ، والمقت له ، حتى استجهلوه وكفّروه ، ونالوا منه »[1] ، وما مدائح الصفدي فيه إلا في بيان درجته العلمية العالية ، بذلك تملّق أصحاب شيخ الإسلام ، من الأمراء والعلماء ، ولم يُغضِب شيوخه الذين دان لهم بالحب والإتباع .

إنّ الصفدي خريج « مدرسة » صوفية أشعرية متعصبة ، كان همّها وأد الدعوة الإصلاحية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، بكل ما يتوصل به إلى ذلك ، وقد كان « خليل » وسيلة من وسائلهم ، فمن أدرجه ـ بَعدُ ـ في ثَبَتِ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، بين محبيه والمدافعين عنه ، فهو غير مصيب ، أو هو من صفديي زماننا ، أليس لكل دهر صفديُّوه ؟[2] .

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام : ٣٢٧ .

(٢) قال راشد الغنوشي التونسي ، ثم اللندني بعد مدح لابن تيمية : « . . . إلا أنه أخذ يداخلني بعض الحرج (!!) من شدة تكثف التمركز (!!) حول تراثه ، وكأنه في كفة وبقية علماء الإسلام أولهم وآخرهم في كفة ، وقد يرجحهم . . » انظر مقدمته على كتاب الشنقيطي (غير صاحب الأضواء) الخلافات السياسية بين الصحابة ، ص٢٤ ، ولا يدري أتحرج يوماً ـ أعني الغنوشي ـ من « التمركز » الكثيف حول كتب (سيد قطب) الذي أعقب الأمة تكفيراً وتفجيراً وفتناً صيّرت الحِقَبُ حُلماً في الكَرَى ، وأذكرت : يا زمان الوصل بالأندلس!!

محمد بن حسن تتمة

ذكر المصنف ترجمة هنا فقال ... الشيخ الفقيه المحدث المتقن الصالح أبو

الحسن علي بن محمد بن عبد الله التركي الحنفي ... ولد في حدود سبعين وستمائة

وقدم دمشق صبيا فنشأ في صيانة وديانة فحفظ القرآن وتفقه وتقدم وسمع

وقرأ وحصل كثيرا من سماعاته وكان حسن القراءة فيها متواضعا لطيف الأخلاق كثير [illegible]

[illegible] وسمع من الفخر علي والشيخ تاج الدين وطائفة توفي مبطونا شهيدا سنة سبع

عشرة وسبعمائة وعندي عنه حديث وحدثنا [illegible]

بن محمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه الشيخ العالم المؤرخ سعد الدين بن شيخ

الشيوخ أبو سعد [illegible] بن سعد بن الإمام تاج الدين الجويني ثم الدمشقي ولد سنة

اثنتين وتسعين وخمسمائة وسمع من طبرزد وأبي اليمن الكندي وغيرهما وله

إجازة من ابن كليب والمبارك بن المعطوش وأبي الفرج بن الجوزي وجماعة وخدم

جنديا [illegible] ثم ترك [illegible] رجع [illegible] وقال الشعر [illegible]

[illegible] وأذن للشيخ علي الموصلي فكتب عنه توفي في ذي الحجة سنة أربع

وسبعين وستمائة

[illegible] الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل صلاح الدين أبو الصفا الصفدي

ترجمة خليل الصفدي ، والإمام ابن القيم في (المعجم المختص) من النسخة التي اعتمد عليها . د. محمد الهيلة ، ومصورتها في (الجامعة الإسلامية) في المدينة

الصفدية من موالي الامير الكبير فارس الدين البكتر ولد سنة ست وتسعين وستمائة وطلب العلم

وشارك في الفضائل وما ولي مع الرسائل وقرأ الحديث وكتب وسمع من يونس الدبابيسي

وحمل عن ابي حيان وابو الفتح الاندلسيين وكتب المنسوب وجمع وصنف التذكرة بتوفيقه

سمع مني وسمعت منه له تواليف وكتب نابغة اللهم تب علينا

خليل الفارسي انا محمد بن ابي عمر الحافظ انا ابو العز الحراني انا الخريف فذكر حديثاً

هو في مجموع صغير ترجمته في صلوة الصبح

بن كيكلدي الامام الحافظ الفقيه البارع المفتي صلاح الدين ابو سعيد العلائي

الدمشقي الشافعي ولد سنة اربع وتسعين وستمائة وحفظ كتبا وقرأ وافاد ودرس وافتى

ونظر في الرجال والعلل وتقدم في هذا الشان مع صحة الذهن وسرعة الفهم سمع

من ابن مشرف وست الوزراء والقاضي وابا بكر الدشتي والرضي الطبري وطبقتهم

انتقى عن ابن مرداس وشهاب محمود دعا ودرس عن جماعة

ذكر المصنف هنا فقال هو قاضي القضاة ذو الفنون شهاب الدين محمد

ابن احمد بن الخليل بن سعادة الخويي ثم الدمشقي الشافعي سمع من ابن اللتي وابن

الصلاح وغيرهما واجاز له جماعة وكان احد اوعية العلم مليح التصانيف فقيه النفس

عارفا بعلم الحديث نظم فيه ارجوزة بديعة اجاز له مروياته وحضرت بين يديه

والذي قرأ على الشيخ ومن مولده في حدود سنة خمس وعشرين وستمائة

بن أبي بكر بن أيوب الفقيه الإمام المفتي المقرئ النحوي شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي

ابن قيم الجوزية ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة وسمع من الشيخ شهاب الدين العابر

ومن القاضي تقي الدين وبنت البطائحي وطائفة وعني بالحديث متونه ورجاله وكان

يشتغل في الفقه ويجيد تقريره وفي النحو ويدريه وفي الأصلين وقد سمع مني جماعة وتصدر

للاشتغال ونشر العلم ولكنه معجب برأيه جريء على الأمور غفر الله له

بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي الشيخ قاضي القضاة علم الدين أبو عبد الله ابن الأخنائي

المصري الشافعي قاضي الشام ولد سنة أربع وستين وستمائة سمعت منه بمشيخة الكبير من

الأبرقوهي وشيخنا الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد وأبي بكر بن الأنماطي وشيخنا الحافظ

الدمياطي وسمع جماعة وأجاز له العز الحراني والقطب ابن القسطلاني وتفقه ونظر في

التفسير وشرع في شرح صحيح البخاري وكان مليح المذاكرة لفظا حسن المنظر حميد الأحكام

كبير القدر ولي قضاء الشام بعد وفاة القاضي عماد الدين رحمه الله في أول سنة

ثمان وسبعمائة أخبرنا القاضي علم الدين محمد بن أبي بكر أنا محمد بن علي أنا ... أنا أبو

محمد المنذري بحديث مسلسل بالفقهاء إلا أنه كان محتجبا عن حوائج المسلمين ... توفي

في ذي القعدة سنة ٧٣٢



ثبت المصادر والمراجع

١ـ ابن تيمية المجتهد بين أحكام الفقهاء وحاجات المجتمع ، عمر فروخ . بيروت .

٢ـ ابن قيم الجوزية ، بكر أبو زيد . الرياض .

٣ـ اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن القيم . الرياض .

٤ـ أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤالات ابن أيبك الدمياطي . المغرب .

٥ـ أخبار جلال الدين الرومي ، أبو الفضل القونوي . بيروت .

٦ـ الإصابة ، ابن حجر . القاهرة .

٧ـ الأعلام ، الزركلي ، بيروت .

٨ـ الأعلام العلية ، البزار . بيروت .

٩ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، السخاوي . بيروت .

١٠ـ أعيان العصر وأعوان النصر ، الصفدي ، دمشق .

١١ـ الإلمام بالإعلام فيما جرى من الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية ، النويري السكندري . الهند .

١٢ـ إنباء الغمر ، ابن حجر . بيروت .

١٣ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ، لابن معصوم . العراق .

١٤ـ أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، إبراهيم الشيباني . الكويت .

١٥ـ إيضاح المكنون ، إسماعيل باشا ، بيروت .

١٦ـ بدائع الزهور ، لابن إياس الحنفي . أبو الحسن الأشعري وعقيدته ، حماد الأنصاري . القاهرة .

١٧ـ البداية والنهاية ، لابن كثير . بيروت .

١٨ـ البدر الطالع ، الشوكاني . بيروت .

١٩ـ بطلان حديث من عشق فعف ، لأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري . الرياض .
٢٠ـ تاريخ ابن الوردي . بيروت .
٢١ـ تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق .
٢٢ـ تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان . القاهرة .
٢٣ـ تاريخ الإسلام ، الذهبي ، بيروت .
٢٤ـ تبصير المنتبه ، ابن حجر العسقلاني . بيروت .
٢٥ـ تجريد الوافي بالوفيات ، ابن حجر العسقلاني والبدر البشتكي . مخطوط .
٢٦ـ تحفة ذوي الألباب ، الصفدي بيروت .
٢٧ـ التحقيق في الفقه ، عبد الوهاب بن محمد بن زهرة الطرالبسي . مخطوط .
٢٨ـ تحكيم العقول بأقول البدر بالنزول ، علاء الدين ابن أقبرس . مخطوطة .
٢٩ـ تذكرة الصفدي ، أجزاء مخطوطة .
٣٠ـ التذكرة التيمورية ، أحمد تيمور باشا . القاهرة .
٣١ـ ترجمة ابن تيمية ، ابن عبد الهادي ، مخطوط .
٣٢ـ التسعينية ، ابن تيمية . الرياض .
٣٣ـ تشويق الأرواح ، ابن السراج الدمشقي . مخطوط .
٣٤ـ التعريف بالمصطلح الشريف ، ابن فضل الله العمري . الأردن .
٣٥ـ تعريف ذوي العلا ، تقي الدين الفاسي . بيروت .
٣٦ـ تفاح الأرواح ، محمد بن السراج الدمشقي ، ثلاث نسخ خطية .
٣٧ـ تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي ، البقاعي ، بيروت .
٣٨ـ التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية ، إبراهيم الشيباني ، الكويت .
٣٩ـ توضيح المشتبه ، ابن ناصر الدين الدمشقي . بيروت .
٤٠ـ جامع الدول ، للمؤرخ المولوي : أحمد بن لطف الله ، (منجم باشي) إصطنبول .
٤١ـ جامع سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، عزير شمس وعلي العمران . مكة المكرمة .

٤٢ـ جنان الجناس ، الصفدي . إصطنبول .
٤٣ـ جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين ، المحبي . بيروت .
٤٤ـ الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر ، السخاوي ، بيروت .
٤٥ـ خزانة الأدب ، ابن حجة الحموي . بيروت .
٤٦ـ خطط دمشق ، أكرم العلي . دمشق .
٤٧ـ درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، الرياض .
٤٨ـ درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن مكناس . القاهرة .
٤٩ـ الدَّرة المضيَّة، لابن عبد الهادي. مخطوط
٥٠ـ درر العقود الفريدة ، المقريزي . بيروت .
٥١ـ الدرر الكامنة ، ابن حجر العسقلاني . بيروت .
٥٢ـ دول الإسلام ، الذهبي . بيروت .
٥٣ـ ديوان ابن الوردي . الكويت .
٥٤ـ الذخائر الشرقية ، كوركيس عواد . بيروت .
٥٥ـ ذيل الدرر الكامنة ، ابن حجر العسقلاني . بيروت .
٥٦ـ ذيل تاريخ الإسلام ، الذهبي . بيروت .
٥٧ـ ذيل تذكرة الحفاظ ، الحسيني . بيروت .
٥٨ـ ذيل طبقات الحنابلة ، ابن رجب . بيروت .
٥٩ـ الذيل على الروضتين ، أبو شامة . بيروت .
٦٠ـ الذيل على العبر ، العراقي . بيروت .
٦١ـ الذيل على طبقات الحنابلة ، ابن رجب . بيروت .
٦٢ـ الرد الوافر ، ابن ناصر الدين الدمشقي . بيروت .
٦٣ـ الرسالة القشيرية . بيروت .
٦٤ـ روضة الطالبين ، النووي . بيروت .
٦٥ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية . بيروت .
٦٦ـ زغل العلم ، للذهبي . الكويت .
٦٧ـ سلوة القريب وأسوة الأديب، ابن معصوم. العراق

٦٨ـ سير أعلام النبلاء ، الذهبي . بيروت .
٦٩ـ شذرات الذهب ، ابن العماد . بيروت .
٧٠ـ شعر دعبل الخزاعي ، دمشق .
٧١ـ الشعور بالعور ، الصفدي . عمان .
٧٢ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام، للسبكي، مصر
٧٣ـ الشهادة الزكية ، مرعي الكرملي . بيروت .
٧٤ـ الشجرة النعمانية، المنسوب لابن عربي، نسخ خطية عدة
٧٥ـ صبح الأعشى ، القلقشندي . القاهرة .
٧٦ـ الصواعق المحرقة ، ابن القيم . الرياض .
٧٧ـ الصوفية القلندرية ، أبو الفضل القونوي . بيروت .
٧٨ـ الضوء اللامع ، السخاوي . بيروت .
٧٩ـ طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة . بيروت .
٨٠ـ طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي . القاهرة .
٨١ـ طبقات الفقهاء ، الشمس العثماني الصفدي . مخطوط .
٨٢ـ عقود اللآل في الموشحات والأزجال : شمس الدين النواجي . القاهرة .
٨٣ـ العلماء العزاب ، عبد الفتاح أبو غدة . حلب .
٨٤ـ العلو للعلي الغفار ، الذهبي . الرياض .
٨٥ـ عنوان العنوان ، البقاعي . بيروت .
٨٦ـ غاية النهاية في طبقات القراء ، ابن الجزري . القاهرة .
٨٧ـ والغيث المسجم في شرح لامية العجم ، الصفدي . بيروت .
٨٨ـ غوامض الصحاح ، للصفدي ، بيروت .
٨٩ـ الفتاوى الموصلية ، العز بن عبد السلام . دمشق .
٩٠ـ فرقة الأحباش ، نشأتها ـ عقائدها ٩١ـ آثارها ، سعد الزهراني . مكة .
٩٢ـ القاهرة بطلان حديث من عشق فعف ، أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري . الرياض .
٩٣ـ القاهرة غوامض الصحاح ، الصفدي . بيروت .

٩٤- قهر الوجوه العابسة في ذكر نسب الجراكسة، طبعة عتيقة جداً من اسطنبول
٩٥- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ابن القيم . الرياض .
٩٦- كشف الظنون ، الحاج خليفة . إصطنبول .
٩٧- الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه ، الصفدي ، بريطانيا .
٩٨- كنوز الأجداد ، محمد كرد علي . دمشق .
٩٩- لسان الميزان ، ابن حجر . بيروت .
١٠٠- المثنوي ، جلال الدين الرومي . ترجمة ابراهيم شتا . القاهرة .
١٠١- لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، الصفدي . طبعة مصر .
١٠٢- مجموع فتاوى ابن تيمية ، طبعة ابن قاسم . السعودية .
١٠٣- مدارج السالكين ، لابن القيم . بيروت .
١٠٤- مرآة الجنان ، اليافعي . القاهرة .
١٠٥- مسالك الأبصار ، ابن فضل الله العمري . الأمارات .
١٠٦- معجم البلدان ، ياقوت . بيروت .
١٠٧- معجم الشيوخ ، الذهبي . الطائف .
١٠٨- المعجم المؤسس ، ابن حجر العسقلاني . بيروت .
١٠٩- المعجم المختص ، الذهبي . الطائف .
١١٠- معجم المطبوعات ، سركيس . بيروت .
١١١- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية . القاهرة .
١١٢- معجم شيوخ الذهبي ، مخطوطة .
١١٣- معرفة القراء الكبار ، للذهبي . بيروت .
١١٤- معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين السبكي . بيروت .
١١٥- مفتاح دار السعادة ، ابن قيم الجوزية . بيروت .
١١٦- المقالات ، شمس الدين التبريزي ، الترجمة التركية . إصطنبول .
١١٧- مقدمة ابن خلدون ، بيروت .
١١٨- المقفى الكبير ، المقريزي . بيروت .
١١٩- المنار المنيف ، لابن القيم . حلب .

١٢٠ـ مناقب الشافعي، للبيهقي، مصر
١٢١ـ منتخب التواريخ لدمشق ، محمد أديب الحصني . بيروت .
١٢٢ـ المنجد في اللغة والأعلام . بيروت .
١٢٣ـ منهاج السنة ، ابن تيمية . الرياض .
١٢٤ـ منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية . الرياض .
١٢٥ـ المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ، السيوطي . الرياض .
١٢٦ـ المنهل الصافي ، ابن تغري بردي . القاهرة .
١٢٧ـ موسوعة أهل السنة في نقد أصول فرقة الأحباش ، عبد الرحمن دمشقية . الرياض .
١٢٨ـ الموسوعة الشدية، قرص (CD)، المجموع الثقافي، الإمارات.
١٢٩ـ نزهة الخواطر ، عبد الحي الحسني . الهند .
١٣٠ـ النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى . بيروت .
١٣١ـ نزول الغيث على الغيث ، الدماميني . الجامعة الاسلامية (رسالة جامعية) .
١٣٢ـ نصرة الثائر على المثل السائر الصفدي، دمشق.
١٣٣ـ نصيحة الذهبي إلى ابن تيمية . بيروت .
١٣٤ـ نفحات الأنس، الحامي، اسطنبول.
١٣٥ـ نقض التأسيس ، لابن تيمية ، الرياض .
١٣٦ـ نكت الهميان ، الصفدي ، بيروت .
١٣٧ـ نيل الأمل ، لابن شاهين . بيروت .
١٣٨ـ هدية العارفين ، إسماعيل باشا . بيروت .
١٣٩ـ الوافي بالوفيات ، الصفدي ، بيروت .
١٤٠ـ وصية الذهبي لابن رافع السلامي ، الرياض .
١٤١ـ الوفيات ، ابن رافع السلامي . بيروت .

* * *

فهرس الأعلام

(أ)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

* * * * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * * * *